فضيلة العلامة الكبير
محمد أمين شيخو
قدس الله سره

عصمة الأنبياء

أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني



عصمة الأنبياء

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ

جمعه وحققه المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

فهرس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين وصلاة الله وسلامه على المرسلين الذين تفوَّقوا على كافة البشر بخلقهم العظيم، وسبقوا في حبِّهم ومعرفتهم بربِّهم سائر العالمين فكانوا بذلك أهلاً لأن يصطفيهم الله تعالى لتلقي رسالاته وجديرين بأن يكونوا هادين لعباده.

وبعد.. فقد ذكر لنا تعالى في القرآن الكريم طائفةً من قصص الأنبياء تتجلَّى فيها طهارة تلك النفوس المؤمنة التي عُصمت بإقبالها الدائم على ربِّها من كل معصيةٍ، ويتراءى من خلالها ما قام به أولئك الرجال من جليل الأعمال ليبيِّن لنا قابلية الإنسان للسير في طريق الفضيلة والكمال، وليكون لنا ذلك مثل أعلى نحذو حذوه، وقدوة حسنة نقتدي بها.

غير أنَّ أيدياً أثيمة كافرة بالله ورسله تناولت هذه القصص منذ مئات السنين فكتبت ما يُسمُّونه بالإسرائيليات، وأوَّلت هذه القصص بخلاف ما أراد الله تعالى، وزادت عليها ما لم ينزِّل به الله، وألصقت بالرسل الكرام أعمالاً يترفع عنها أدنى الناس، وهم يريدون من وراء ذلك كلّه أن يبرهنوا على أنَّ الإنسان مجبول على الخطأ، وأنه لا يمكن أن يسير في طريق الفضيلة ليصدّوا الناس عن سبيل الله وليبرِّروا ما يقعون به من أعمال منحطة لا يرضى بها الله، وقد ضلُّوا بذلك وأضلُّوا كثيراً، إذ تناقل الناس جيلاً عن جيل تلك التأويلات الباطلة فدارت على ألسنة الخاص والعام وأدَّى الأمر ببعض المفسرين إلى أن أدرجوها في طيات تفاسيرهم وبذلك نظر الناس إلى الرسل الكرام نظرة نقص وانقطعت

نفوسهم عن محبة رسل الله وتقديرهم، وفسدت اعتقادات الكثيرين وساءت أعمالهم، وفي الحديث الشريف: «**إنَّما أخافُ على أمتي الأئمة المُضلِّينَ**»[1].

ولذلك وإظهاراً للحقيقة، وتعريفاً بكمال رسل الله الكرام أقدمت على شرح هذه القصص شرحاً مستنداً إلى الآيات القرآنية ذاتها، متوافقاً مع المراد الإلهي منها، مبيِّناً كمال أولئك الرجال الذين جعل الله تعالى في قصصهم عبرةً لأولي الألباب، وضرب في طهارتهم وشرف نفوسهم مثلاً للعالمين، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ. . ﴾[2].

وتتميماً للفائدة، وتعريفاً للإنسان بذاته وبخالقه الكريم الذي كرَّمه وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً أحببت أن أبدأ بكلمة وجيزة أتكلم فيها عن المراد الإلهي من خلق الكون كلّه مبيِّناً شرف الإنسان ومنزلته العالية بين سائر المخلوقات، تلك المخلوقات التي عرض عليها ربها عرضاً ثميناً عالياً فخافت وأشفقت من التصدي لحمله وما تقدم له إلاَّ الإنسان وشاركه الجان وغامر كل منهما مغامرة وقطع على نفسه عهداً عرَّض فيه نفسه لتحمُّل أكبر المسؤوليات وأعظم المخاطر والتبعات طمعاً فيما يفوز به من النعيم المقيم والخير اللامتناهي الكثير، فإن هو أوفى بما عاهد عليه الله فقد أفلح ونجح وسَعد سعادة أبدية وفاز بمنزلة من القرب الإلهي لا يدانيه فيها أحد من العالمين وإن هو نكث عهده ونقضه كان أحط الخلق جميعاً، وشقي شقاءً أبدياً وكان من الخاسرين.

أما وقد قدَّمت هذه المقدمة فلأبدأ ببيان المراد الإلهي من خلق المخلوقات، وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

محمد أمين شيخو
١٩٥٢م

---

[1] الجامع الصغير /٢٥٦٣/ (ت).

[2] سورة الأنعام: الآية (٩٠).

الله تعالى وبدء الخلق

كان الله تعالى ولم يكن معه شيء، فلا أرض ولا سماء، ولا شمس ولا قمر، ولا هواء ولا فضاء، ولا ليل ولا نهار، ولا زمان ولا مكان، ولا إنسان ولا حيوان، ولا مَلَك ولا جان، فهو تعالى الأول، أول بلا بداية، فمهما قلت أول فهو أول وأول وليس لوجوده تعالى أول ولا شيء قبله.. وهو تعالى عظيم وكبير فمهما قلت عظيم فهو أعظم وأعظم ومهما قلت كبير فهو أكبر وأكبر، لا حدَّ لعظمته ولا انتهاء، آخر بلا نهاية ولا شيء بعده، قال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَ الآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ﴾[1].

وقد أراد تعالى وهو معدن الجود والإحسان، والرحمة والفضل والحنان والعظمة والجمال والجلال، وغير ذلك من الأسماء الحُسنى الدالَّة على الكمال، أراد تعالى أن يخلق المخلوقات ليُذيقها من رحمته وليغمرها بفيض من برِّه وإحسانه، وإن شئت فقل أراد تعالى أن يخلق المخلوقات ليعرِّفها بذاته العلية كيما تسبح متنعِّمةً في شهود جماله وجلاله وتتمتع مستغرقةً في رؤية كماله، وفي الحديث القُدسي الشريف: «**كنتُ كَنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق وعرَّفتهم بي فبي عَرفوني**»[2].

وتفصيلاً لمعنى الحديث الشريف نقول:

---

[1] سورة الحديد: الآية (٣).

[2] قال تعالى: **{وَ مَا خلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعْبُدُونِ}** الذاريات (٥٦). وقد وافق على صحة الحديث الشيخ علي ملا القاري مستنداً إلى تأويل ابن عباس لقوله تعالى: **{وَ مَا خلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ}**: أي ليعرفوني. وقد اعتمده الصوفية وابن عربي وبنوا عليه أُصولاً.

الكنز: هو الشيء الثمين الجميل، والمراد به في الحديث الشريف ذلك الجمال الإلَهي العظيم والكمال العالي الرفيع.

المخفي: الذي لا يعرفه أحد.

فأحببت أن أُعرف: فتشير إلى كرمه تعالى وكبير فضله لأنَّ من شأن الكريم أن يُظهر كرمه وفضله، ويفيض برّه وإحسانه.

فخلقت الخَلْق: أي ليتنعَّموا بشهود ذلك الجمال الإلَهي وليستغرقوا في رؤية ذلك الكمال الذي لا يتناهى، وهي تُشير هنا إلى إيجاده تعالى المخلوقات في ذلك العالم الذي يُسمّونه بعالم الأزل.

عرَّفتهم بي: أي أشهدتهم عظمتي وفضلي عليهم في خلقهم.

فبي عرفوني: أي عن طريق رؤيتهم لأنفسهم توصلوا لمعرفتي فتمتَّعوا برؤية ذلك الكنز العالي إذ شاهدوا طرفاً من جمالي وكمالي.

العدل الإلهي وتساوي الخلق في عالم الأزل

وقد كانت المخلوقات أوَّل ما خلقها الله تعالى في ذلك العالم "عالم الأزل" نفوساً مجرَّدةً عن الصور والأجساد، فالإنسان والحيوان، والسماء والأرض والمِلَك والجان وإن شئت فقل كل المخلوقات كانت يومئذٍ من نوع واحد وذات صفةٍ واحدة لا فرق ولا تفاوت بينها في شيء وقد تمتَّعت هذه الأنفس كلها يومئذٍ برؤية ذلك الكنز وشغفت حبّاً وهياماً بمشاهدة ذلك الجمال الإلّهي العظيم.

سبب الخروج إلى الدنيا

على أنَّ وقوف هذه المخلوقات عند درجة واحدة من الرؤية للجمال الإلٓهي الذي شهدته تجعلها فيما بعد تَمَلُّ الحال الذي هي فيه مهما كان عالياً ولا بدَّ لها حتى يكون النعيم والفضل تامّاً من أن تترقَّى في الرؤية من حال إلى حال أعلى بصورة لا تتناهى، وتقريباً لذلك من الأذهان نقول:

"لو أنَّ رجلاً يجلس في بستان جميل لم ترَ مثله العين وظلَّ مقيماً فيه أمداً طويلاً فلا شك أنه يمَلّه ولا يعود يرى بعد حين ما فيه من متعة وجمال ولا بدَّ له حتى يدوم له النعيم من أن ينتقل إلى بستان آخر أجمل مما هو فيه".

وحيث أنَّ المخلوق لا يستطيع أن يترقَّى في رؤية الجمال الإلٓهي من حال إلى حال أعلى إلاَّ إذا كانت له أعمال طيبة تجعله واثقاً من رضاء خالقه عنه وتكون له بمثابة مدارج يستطيع أن يتقرب بها إلى الله تعالى زلفى لذلك عرض تعالى على هذه الأنفس جميعاً الخروج من ذلك العالم الذي لا عمل لها فيه إلى دار تكون لها فيها أعمال عالية تساعدها على الإقبال على خالقها والسعي إلى ذلك الكنز العالي لِتَعُبّ من بحر الجمال والكمال عبّاً كثيراً متواصلاً لا متناهياً.

أثر العمل في تسامي النفس وقربها من خالقها

ولبيان أثر العمل في تسامي النفس وقربها من خالقها نضرب على ذلك مثلاً فنقول:

لنتصور قائداً خاض بجنوده معركةً من المعارك، فيا ترى هل كل هؤلاء الجنود يعودون من المعركة في حال نفسي واحد؟؟!!. لا شك أنَّهم سيكونون على درجات.. فالجندي الأكبر تضحيةً وإقداماً والأحسن عملاً يرجع وهو أقرب من قائده نفساً وأدناهم لديه منزلةً وأوفرهم بالسعادة النفسية حظاً.

وكذلك ينطبق هذا المثل على الأبناء تجاه والدهم، والطلاب تجاه معلِّمهم، والمريدين مع مرشدهم، والعباد مع خالقهم، إذ من قوانين النفس الثابتة أنَّها لا تستطيع أن تقبل على آخر إقبالاً معنوياً ما لم يكن لها عمل صالح تقدِّمه بين يديها فتستند عليه في إقبالها. وكلَّما كانت تضحياتها أكبر وعملها أعلى وأرفع كان إقبالها أعظم.

إنَّ هذه الناحية النفسية وأعني بها الثقة التي يولِّدها العمل الصالح في نفس صاحبه فيجعلها تسير قُدماً وتعرج متساميةً إلى خالقها فتسعد بالقرب منه، وتنعم بالإقبال عليه تعالى نعيماً متناسباً مع عملها، هذه الناحية الهامة وإن شئت فقل هذه الثقة التي هي أساس القرب وسر السعادة، هي التي جعلت من هذه الدار الدنيا دار العمل ممراً وطريقاً للدار الآخرة حيث الجنَّات والنَّهَر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

أثر الشهوة في توليد الأعمال وإعطائها قيمها

والآن بعد أن بيَّنا قيمة العمل وكونه أساساً للسعادة والنعيم لا بدَّ لنا من معالجة نقطة ثانية، تلك هي الشهوة التي بدونها لا ينطلق المخلوق للعمل ولا يندفع إليه، الشهوة التي تجعل المخلوق يتقدم إلى العمل راغباً ويسعى إليه مسروراً، ولولا هذه الشهوة لما كان للمخلوق رغبةً في السعي إلى عمل من الأعمال ولظلَّ خامداً ساكناً لا يجد ذوقاً ولا لذةً ولا يعرف للنعيم طعماً.

وإذاً فالشهوة هي الدافع والمحرِّك وبها يكون الذوق والنعيم، وإلى جانب هذا كلّه، الشهوة هي التي تُضفي على العمل قيمته وبدونها لا يكون للعمل في نظر صاحبه شأن ولا تكون له قيمة وكلَّما كان الشيء مُحبَّباً للنفس ومرغوباً لديها كلَّما كانت التضحية به أكبر قيمةً وأعظم في النفس تأثيراً، فلو أنَّ الإنسان كان لا يرغب بالمال ولا يشتهيه فعندئذٍ لا يكون للصدقة في نظره معنى ولا يجد في إنفاقه وصدقته رُقيّاً نفسيّاً ولا إقبالاً وكذلك الأمر في غضِّ البصر والتعفف عن المحرَّمات، فلو أنَّ النفس كانت لا تميل إلى النساء لما كان للعفة وغض البصر معنىً ولما وجد المؤمن المتعفف تلك المعاني السامية التي يجدها في نفسه بسبب عفته وطهارته.

وهكذا تجد الشهوات تُعطي الأعمال الطيبة قِيَماً متناسبة معها، فكلَّما كانت الشهوة التي يُضحِّي بها محببة إلى النفس كلَّما كان العمل الناشئ عنها في نظر صاحبه عظيماً وكان رُقي النفس وتساميها بهذه النسبة كبيراً أيضاً.

أثر حرية الاختيار في قيم الأعمال

أما وقد بيَّنا قيمة العمل وأثر الشهوة من حيث الذوق واللذة ومن حيث الدفع إلى الأعمال وتوليدها إيَّاها ومن حيث إعطاؤها العمل قيماً متناسبة معه فمن اللازم علينا أن نتكلم عن حرية الاختيار، تلك الحرية التي تجعل المخلوق يُباشر العمل مريداً مختاراً لا مرغماً مقهوراً، وبالحقيقة لا يستطيع المخلوق أن يتقرب بعمله إلى خالقه خطوة وليس يمكن أن يجد له قيمة إذا لم يكن لهذا المخلوق في عمله حرية واختياراً، وتوضيحاً لذلك نُقدِّم المثال الآتي فنقول:

هب أنَّ أميراً كان يسير في الطريق يوماً وحدَّثته نفسه بأن يشتري متاعاً فتقدَّم أحد حاشيته منه وحمل له ذلك المتاع متطوعاً مختاراً، فيا ترى هل يكون حال هذا الرجل الذي حمل المتاع للأمير متطوعاً كحاله فيما لو لم يتقدَّم هو بذاته وأكرهه الأمير على القيام بذلك العمل إكراهاً؟!. لا شك أنه في حال تطوعه وقيامه بذلك العمل بناء على اختياره يكون أقرب إلى أميره نفساً وأكثر عليه إقبالاً.

وإذاً فمباشرة الأعمال مباشرة مبنية على الحرية والاختيار تجعل لهذه الأعمال قيماً عالية تستطيع أن تستند عليها النفس في إقبالها على خالقها فتسعد بالقرب من جنابه الكريم وتستغرق في مشاهدة جماله وكماله بقدر ما قدَّمت من أعمال.

عرض الأمانة وتصدِّي الإنسان في عالم الأزل لحملها

لا بدَّ لنا لفهم المراد من كلمة (**الأمانة**) من أن نقدِّم مثالاً فنقول:

لو أنِّي كنت أملك متاعاً من الأمتعة وأودعته صديقاً لي شريطة أن أسترده منه بعد حين، فهذا المتاع الذي هو ملكي ما دام عند صديقي فهو أمانة في يده.

وكذلك المخلوقات إرادتها في الأصل مُلك لخالقها ومُوجدها وهي مرهونة لأمره تعالى فلا تملك إرادة ولا اختياراً. وقد أراد تعالى كما قدَّمنا آنفاً أن يعطي الأنفس أكبر عطاء فبيَّن الوسيلة التي تصل بها إلى نيل هذا العطاء وذلك بأن عرض عليها أن يجعل إرادتها التي هي مُلكه تعالى أمانة بين يديها وأن يجعلها حرّةً في اختيارها السير إلى أعمالها المتولِّدة عن شهواتها.

إنَّ إعطاء هذه الإرادة والحرية في الاختيار هي ما نقصده بكلمة (**الأمانة**) التي مرَّت بنا في هذا العنوان.

نعم لقد عرض تعالى الأمانة في عالم الأزل على الأنفس جميعها بلا استثناء ثمَّ بيَّن لها أن حمل الأمانة، وإن شئت فقل حرية الاختيار في السير إلى الأعمال، أمر ذو خطر عظيم. فإذا كان المخلوق يستطيع بهذه الوسيلة أن يرقى بعمله ويصل إلى مرتبةٍ دونها سائر المخلوقات فهو إلى جانب ذلك قد يهوي به عمله إلى درجة لا يمكن أن ينحط إليها أحد من العالمين. ولذلك ورحمة من الله تعالى بمخلوقاته بيَّن لها أنَّها إذا هي رضيت بحمل الأمانة وخرجت إلى الدنيا فسيرسل لها كتاباً يكون نبراساً ومرجعاً لها في أعمالها، فإذا هي استنارت بنوره تعالى لدى مباشرتها العمل المتولد عن الشهوة واستهدت به سبحانه واستلهمته الرُشد في سيرها فسيكون صراطها مستقيماً وسيرها

مأموناً، وعملها متطابقاً مع طريق الحق الذي يبيِّنه كتابه تعالى وبذلك تُعصم من الزلل وتُحفظ من الوقوع في الأذى والضرر ويكون عملها سبباً في رُقيّها وتساميها فإذا هي جاءته تعالى بعد موتها كان لها من أعمالها العالية الإنسانية سند تعتمد عليه في وجهتها، ومتكأ تتكىء عليه في إقبالها على ربِّها وهنالك تفوز بالقرب من جنابه الكريم وترقى رقيّاً أبديّاً متتالياً في جنَّات النعيم.

أمَّا إذا هي حملت الأمانة ثم جاءت إلى الدنيا ولم تستنر بنوره تعالى ولم تستهد بهداه لدى سيرها إلى أعمالها فلا شك أنَّها ستخطئ طريق الحق الذي يصل بها إلى السعادة وستكون أعمالها كلّها أذى وإضراراً بالخلق فإذا هي جاءت خالقها بعد خروجها من الدنيا فعندئذٍ تقف بين يديه خجلى من أعمالها، ذليلة بما تحمله بين يديها من لؤمها ودناءتها وإنه ليحجبها عملها الدنيء عن الإقبال عليه تعالى فتغضي منه حياءً وخجلاً ولا تستطيع أن تقبل عليه بوجهها، ثمَّ أنها لتتذكَّر ما شهدته في عالم الأزل وتنظر إلى تفريطها في جنب الله وخسرانها ذلك الكنز العالي فتحرقها الحسرة حرقاً لاذعاً مؤلماً فلا تجد لها مأوى إلاَّ جهنم فترتمي بها لتغيب بألم النار وعذاب الحريق عن ألمها وعذابها النفسي الشديد.

وفي الحديث الشريف: «**إنَّ العارَ ليلزمُ المرءَ يوم القيامةِ حَتى يقولَ: يا ربِّ لإرسالُكَ بي إلى النار أيسرُ عليَّ مما ألقى، وإنه ليعلمُ ما فيها من شِدَّةِ العذاب..**»[1].

ذلك كله بيَّنه تعالى للأنفس يوم عرض عليها الأمانة فعرفته وعقلته، رأت ما وراء حمل الأمانة من الخيرات وما في خيانة الأمانة وما وراء التفريط من الحسرات.

---

[1] الجامع الصغير /٢٠٥٩/ (ك).

وهنالك وفي هذه اللحظة التي تجلَّى فيها الفضل الإلَهي وتبدَّت العدالة الإلَهية لسائر المخلوقات، أقول: في هذه اللحظة الحاسمة تقهقرت جميع المخلوقات ورهبت من التقدم لهذا الامتحان لما قد يتبعه من الفشل والشقاء وإن كان وراءه من السعادة والخيرات.

نعم إنَّ الأنفس كلها أبت حمل الأمانة وأشفقت منها ولم يتقدم لحملها إلاَّ فئة واحدة غامرت مغامرة عظيمة، وعاهدت ربها على ألاَّ تنقطع عنه لحظة واحدة وهناك قَبِلَ ربها عهدها وميثاقها وأكبر مغامرتها ووعدها بجنة الخُلد إن هي وفَّت بعهدها. وإلى ذلك العرض وذاك العهد يُشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ۞ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1].

وينطوي تحت كلمة ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ ما فيهن من أنفس وما اشتملت عليه من مخلوقات. وتشمل كلمة ﴿الإِنْسَانُ﴾ بحسب ما يُشير إليه القرآن الكريم في مواضع أخرى على أفراد النوع الإنساني والجان. أمَّا كلمة ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ فهي لا تعني إثبات الظلم والجهل للإنسان إنَّما هي كلمة مدح وإكبار، وقد جاءت في صيغة الاستفهام الاستنكاري محذوفة أداته زيادة في تقرير المعنى المراد. إنَّها تقول:

أكان الإنسان ظالماً لنفسه بعهده هذا؟. وهل كان جاهلاً ما وراء حمل الأمانة من الخيرات، أم أنه عرف ما وراء ذلك من سعادة لا تتناهى فتقدَّم وغامر وكان بذلك

[1] سورة الأحزاب: الآية (٧٠-٧٢).

أكرم المخلوقات، ذلك كان موقفك أيُّها الإنسان في ذلك اليوم العظيم وتلك هي منزلتك بين سائر العالمين.

لقد رضيت بالخروج إلى الدنيا دار العمل لتعمل صالحاً، وطلبت الشهوة لا لذاتها وما فيها من متعة بل لتكون دافعاً لك إلى الأعمال وغامرت إلى جانب ذلك كله في حمل الأمانة ليكون لأعمالك في نظرك شأن وقيمة عالية فرضيت بأن تكون حراً في اختيارك وأن تعطى إرادتك فينفِّذ لك ربُّك ما تريد ويهبك القوة على القيام به ثمَّ عاهدت ربَّك على أن تظل مستنيراً دوماً بنوره لتكون إرادتك متوافقة مع ما شرعه في كتابه ولئلا تزلَّ بك القدم أثناء اختيارك، نعم لقد طلبت ذلك كله لتكون أحظى المخلوقات بمعرفته تعالى وأوفرهم حظاً بمشاهدة جمال هذا الكنز العظيم والنظر إلى وجه ربك الكريم.

الملخَّص: سأل الله تعالى الخلق: ألست بربكم؟.

انقسموا إلى أربعة أقسام بالمنازل والدرجات:

١. فأناس نالوا الشهادة: وهم الرسل والأنبياء وسيد الخلق ﷺ نال أعلى درجة.

٢. من بعدهم المؤمنون: وهم أقل درجةً «**إنَّما بُعثت لأتمِمَ مكارمَ الأخلاق**»[1].

٣. في الدنيا يسمو بصاحب القابلية، والعمر حتى إذا اجتهد ينال. فهنالك الراسبون إن نظروا وفكَّروا بهذا الكون وبالبداية والنهاية لهذا الخلق ينجحون، بل وينافسون السابقين.

[1] أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة.

هؤلاء ينفعهم حديث رسول الله ﷺ: «**إنَّما بُعثت معلِّماً**» أي معلِّماً للإيمان وطريق الإيمان بالله.

٤. الذي لا جدوى له: جعل الله تعالى عمره قصيراً، دون البلوغ يموت قال تعالى:

﴿. . وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ. . ﴾.

لـمَّا خلق الله تعالى الأنفس بيَّن لها الطريق:

إن جئتم للدنيا وسلكتم طريق الحق ما انقطعتم عني واستنرتم بنوري ربحتم ربحاً عظيماً.. وإن لم تفعلوا خسرتم خسارة كبرى.

فالإنس والجن قالوا نحن لها ولـمَّا دبَّ تعالى الشهوة فيهم، أناس صدقوا وأناس في نفوسهم شهوة خبيثة، ونظر الله تعالى إلى الخلق ساعتئذٍ: فالذي صدق كسب الكمال.. سيخرج للدنيا ويظهر بكماله، هذا نجح. والذي لم يصدق وبقيت الشهوات في نفسه يُخرجها له ثمَّ يضيّق عليه لعلَّه يتوب ويرجع إلى رُشده.

كمدرسة: أناس نجحوا في الدورة الأولى نجاحاً نهائياً.. وأناس لم ينجحوا في الدورة الأولى لذلك هذه الدنيا لهم بمثابة دورة ثانية ليتلافوا أمرهم. وهنا تفيد كلمة:

﴿. . إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحيمٌ﴾[1].

---

[1] سورة الأنعام: الآية (١٦٥).

من هم الملائكة الكرام

وهناك فئة ثانية من هذه الأنفس عزفت عن الدنيا وشهواتها ولم تجرؤ أن تتقدَّم لما تقدَّم له الإنسان فلم تطلب لنفسها إرادة ولا اختياراً، بل ملَّكت إرادتها لخالقها وبذلك سُمِّيت "ملائكة".. وضحَّت بالشهوة في سبيل بقائها قريبة من ربِّها فكان لها من عملها هذا وتضحيتها سبيل ووسيلة تُقرِّبها من خالقها. وإن كان الإنسان الصادق بمجابهة شهوته وتوجيهها وفق إرادة خالقه وقيامه بالأعمال بناءً على اختياره أعلى من هذه الفئة منزلةً وأكثر منها في هذا المضمار سبقاً.

الحيوانات والنباتات والجمادات

وأخيراً نريد أن نتكلَّم عن فئةٍ لم تطاوعها نفسها على العزوف عن الشهوة ولم تشأ أن تضحِّي بما وراءها من لذةٍ ومتعة، وهي إلى جانب ذلك لم تجرؤ على حمل الأمانة وملك الإرادة ولذلك طلبت الشهوة شريطة أن تكون مقيَّدة الإرادة.. وينطوي تحت هذه الفئة صنوف الحيوانات والنباتات والجمادات.

فهذه الصنوف الثلاثة طلبت من خالقها أن يخرجها إلى الدنيا وأن يمنحها الشهوة التي تتذوق بها فضله تعالى وأن يجعل شهوتها مقرونة بوظيفة تؤديها في خدمة هذا الإنسان ليكون لها من خدمة هذا المخلوق الكريم عمل ووسيلة تقرِّبها من خالقها وهنالك عرض ربها عليها الكون وما فيه من الوظائف والخدمات التي يتأمن منها سير الحياة الدنيا، فاختار كل مخلوق من هذه المخلوقات وظيفة فطلب الجمل مثلاً أن يكون مسخراً مذللاً لحمل الإنسان وحمل متاعه. واختارت بعض النباتات أن تكون له طعاماً وغذاءً.. كما اختارت الشمس أن تكون للإنسان سراجاً وهّاجاً.

وهكذا اختار كل مخلوق وظيفة وعملاً وهناك اقتضت إرادته تعالى أن يكون لكل نفس من هذه الأنفس الأعضاء والحواس المعينة لها على القيام بمهمَّتها والثوب المتناسب مع وظيفتها فجاء الكون الذي نراه الآن قائماً على أبدع حال وأكمل نظام يشهد لك كل ما فيه بحكمة الحكيم وعلم العليم وقدرة القدير ورحمة الرحمن الرحيم. قال تعالى: ﴿ . .مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحمنِ مِنْ تَفَاوتٍ فَارجعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى من فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ يَنقلبْ إليكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيْرٌ﴾[1].

---

[1] سورة الملك: الآية (٣-٤).

أقول.. وإلى هذه الناحية، وأعني بها تسخير هذه الفئة من المخلوقات وجعلها مذللةً في خدمة الإنسان تشير طائفة من آيات القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي جَعل لَكمُ الأَرضَ ذلُولاً فامْشُواْ فِي مناكبها وكُلُواْ مِن رزقِهِ وإليْهِ النُّشُورُ﴾[1].

﴿هُوَ الذي خَلَق لَكُم مَا فِي الأَرضِ جَميعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلى السَّمَاءِ فَسوَّاهُنَّ سَبعَ سَمَواتٍ وَهُوَ بِكلّ شَيءٍ عَليمٌ﴾[2].

﴿اللهُ الذي خَلَقَ السَّموات والأرضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزقاً لكُمْ وَ سخَّر لَكمُ الفُلكَ لتجريَ في البَحرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّر لكمُ الأَنهارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكمُ الشَّمسَ وَ القمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لكمُ الليلَ والنَّهارَ﴾[3].

فانظر أيها الإنسان كيف أن الكون كلّه يتقرَّب بخدمتك إلى خالقه زلفى فإن أنت وفَّيت بعهدك فقد تفوَّقت وسَمَوْتَ على المخلوقات جميعاً. وإن أنت أعرضت عن خالقك وملت إلى شهوتك ساء عملك وصرت أحطّ من الحيوان شأناً، قال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ كَفَرواْ مِنْ أَهلِ الكِتَاب والمُشركينَ في نارِ جَهنَّمَ خَالدينَ فيها أُولئكَ هُمْ شرُّ البَرِيَّة، إنَّ الذينَ آمَنُوا وعمِلوا الصَّالحاتِ أَوْلَئكَ هُمْ خَيرُ البَريةِ ۞ جَزاؤهُمْ عِندَ رَبّهمْ جَنّاتُ عَدنٍ تَجري مِنْ تَحتِها الأَنهَارُ خَالدينَ فِيها أَبداً رَضيَ اللهُ عَنْهمْ ورَضوا عَنْهُ ذلكَ لِمنْ خَشيَ رَبَّهُ﴾[4].

---

[1] سورة الملك: الآية (١٥).

[2] سورة البقرة: الآية (٢٩).

[3] سورة ابراهيم: الآية (٣٢-٣٣).

[4] سورة البينة: الآية (٦-٨).

تفاضل الناس وتسابقهم في عالم الأزل

والآن بعد أن عرفنا منزلة الإنسان بين سائر المخلوقات نقول: لم يكن بين أفراد هذه الفئة يومئذٍ سابق ومسبوق ولا فاضل ومفضول ولم يكن بينهم ساعتئذٍ نبي ولا رسول فآدم ﷺ ومن سواه كلهم كانوا يومئذٍ بين يدي خالقهم سواء. إذ لم تكن لهم بعد من أعمال يتفاضلون بها وليس يميز أحداً عن أحدٍ بين يدي هذا الإلّه العادل ما دام الخلق جميعاً عباده سوى الأعمال. ولذلك وتشميلاً لمبدأ العدالة، ولئلا يكون لأحد من الناس على الله حجةً، عرض تعالى على بني آدم جميعاً كما ذكرنا من قبل كما عرض على الجن أيضاً أنه سيضع فيهم الشهوة وذكَّرهم بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم بأن ينظروا للشهوة بنور خالقهم الكريم، وحذَّرهم من الانقطاع عنه طرفة عين، ثمَّ إنه تعالى عرض عليهم الدنيا وما فيها وألقى في نفوسهم الشهوة وذكَّرهم بعهدهم منادياً:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾ أي: ألست الذي خلقتكم وأوجدتكم، بإمدادي قيامكم وحياتكم، ألست المتفضل عليكم. أفيمكن لكم بعد هذا أن تنقطعوا عني وتنظروا إلى الشهوات دون الاستنارة بنوري؟. وما إن سمعوا كلمة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾ حتى أجابوا جميعاً بكلمة ﴿بَلى﴾ أي: أنت ربّنا، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟. قَالُوا: بَلى..﴾[1].

غير أن كلمة ﴿بَلى﴾ لم تكن ساعتئذٍ صادرةً من ألسنة واحدة وإنَّما تمايز بنو آدم وانقسموا أقساماً وصاروا على درجات.

---

[1] سورة الأعراف: الآية (١٧٢).

فمنهم من نظر إلى شهوته فاستهواها واستغرق فيها فغمرته وسترته عن خالقه المتفضِّل عليه بها، وكان من هذه الأنفس أنفس الكفَّار جميعاً، إذ الكفر هو الستر، فهؤلاء سترتهم شهواتهم عن خالقهم فانغمسوا بها ونسوا عهدهم الذي عاهدوه.

وهناك أنفس ذكرت عهدها لخالقها فقالت: بلى، أي أنت ربنا ولا ننقطع عنك.. فما أن رأوا الشهوة حتى افتتنوا بها ونسوا عهدهم أيضاً وينطوي تحت هذه الفئة المنافقون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

وهناك أنفس أخرى نظرت إلى الشهوة فاستحلتها ومالت إليها، غير أنَّها ذكرت عهدها لخالقها فعادت إليه تائبةً من تقصيرها، وتشمل هذه الفئة على العصاة الذين إذا جاؤوا إلى الدنيا مالوا إليها، فإذا ذكَّرتهم ذكروا وعادوا تائبين من تفريطهم نادمين على تقصيرهم فيما مضى.

أمَّا الأنفس التي ذكرت عهدها ولم تنظر إلى الشهوة إلاَّ بنور خالقها ولم تتحوَّل عنه أبداً فتلك هي الأنفس المؤمنة حقاً، لقد رأت الشهوة فرأت فضل خالقها عليها بها فشكرته على فضله وحمدته على نعمته. وتشمل هذه الفئة على الأنبياء والمرسلين وكُمَّل المؤمنين، فهؤلاء جميعاً قالوا بلى ونفوسهم مشغوفة بحُب خالقها إقراراً بفضله وحمداً له على نعمته، وكان أسبق هؤلاء في ذلك إلى الله تعالى وأحمدهم له على نعمته وفضله سيدنا محمَّد ﷺ.. وبذلك صار للعالمين سيداً وللمرسلين إماماً.

ونظر الله تعالى إلى بني آدم في تلك الساعة من بعد أن احتل المكانة التي احتلها فعلم سبحانه أنَّ فئة الكافرين والمنافقين الذين أعرضوا عن ربِّهم ولم ينظروا إلى شهواتهم بنور خالقهم، هؤلاء قد امتلأت نفوسهم بذلك الإعراض خبثاً وأمراضاً ولا بدَّ لهم من

الخروج إلى الدنيا ليخرج من نفوسهم خبثها ومرضها كما علم أنَّ فئة المؤمنين الذين نظروا إلى شهواتهم بنور خالقهم وعرفوا فضل ربهم. هؤلاء قد امتلأت نفوسهم بإقبالها على ربها خيراً ولا بدَّ لهم من الخروج إلى الدنيا أيضاً ليُظهروا ما في نفوسهم من كمال.

القضـاء والقـدر

لا بدَّ لنا لفهم معنى القضاء والقدر من أن نقدم مثالاً فنقول:

لو أنَّ معلِّماً كان لديه عدد من الطلاّب فنظر إليهم نظرة قبل الفحص الذي يجري عادةً آخر العام فلا شك أنه بما يعلمه من أحوالهم وسيرهم خلال السنة الدراسية يستطيع أن يحكم على فريق منهم بالرسوب حتماً كما يحكم على آخرين بالنجاح فهذا الحكم القطعي الذي يحكمه والذي لا يمكن أن يتطرق له الخطأ نستطيع أن نسمِّيه قضاء مأخوذة من قضى بمعنى حكم في الأمر وبتَّ.

ثمَّ إنَّ هذا المعلم يستطيع أن يقدِّر درجة كلٍّ من هؤلاء الطلاّب الناجحين فيقول مثلاً: فلان ستكون درجته كذا وفلان درجته كذا. فهذا اليقين والتقدير لدرجة كل واحد من هؤلاء الطلاب نستطيع أن نسمِّيه قدراً وزيادة في إيضاح معنى كلمة (**القدر**) نقدِّم مثالاً آخر فنقول:

لو أنَّ سائقاً نظر إلى مستودعات البنزين في سيارات عديدة وشاهد الأرقام التي وصلت إليها سوية البترول في كل سيّارة منها فقال: هذه السيارة تستطيع أن تقطع عشرين كيلومتراً وهذه أربعين وهذه لخلوها من البترول لا تستطيع أن تسير أبداً، فهذا الحساب الذي يحسبه، وذلك التقدير الذي يقدِّره لكل سيارة بناء على علمه بما فيها من وقود هو ما نستطيع أن نسمِّيه قدراً وهكذا فالله تعالى قدَّر لكل إنسان منزلةً بعد أن اطَّلع على ما في نفسه وعلم ما فيها.

وهذا المثال الذي قدَّمناه يُبيِّن لنا أنَّ الله تعالى لم يجبر أحداً على السير في طريق دون طريق لكنَّه علم حال الخلق ومنازلهم علماً وقدَّر ذلك تقديراً.

وإذا كان الإنسان قد يُخطئ في تقديره لقصر علمه عن الإحاطة بدقائق الأمور وخفاياها فالله تعالى لا يمكن أن يتطرق لتقديره خطأ لأنَّ تقديره مبني على علم كامل وشامل.

إنَّ هذه الأمثلة التي قدَّمناها ليست إلاَّ تقريباً للأذهان لمعنى كلمة (**القضاء والقدر**). فالله تعالى لـمَّا نادى الخلق في عالم الأزل بكلمة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾ وأجابوه جميعاً بكلمة ﴿بَلى﴾ نظر تعالى إليهم فعَلِمَ ما كمن في نفوس أولئك الذين نظروا إلى شهواتهم بنوره تعالى من الخير وما امتلأت به نفوسهم من كمال، كما علم ما كمن في نفوس الذين لحقوا شهواتهم معرضين عنه تعالى وشهد ما استقر في نفوسهم من خبث وأمراض. علم تعالى ما في نفوس هؤلاء وهؤلاء فقضى أي فحكم بما سيكون من هؤلاء المقبلين إذا جاؤوا إلى الدنيا من خير وما سيظهر منهم من كمال كما قضى بما سيكون من أولئك المعرضين إذا جاؤوا إلى الدنيا من خبث ولؤم وما سيحلُّ بهم من الخُسران.

لقد قضى تعالى أي حكم حُكماً ثابتاً لما علمه في الفريقين كما قدَّر لكل واحد منزلته التي سيصل إليها بعمله تقديراً متناسباً مع إقباله.

ومن هنا نستطيع أن نرد أقوال أولئك الذين يقولون كذباً، إن الله خلق أُناساً سعداء وآخرين أشقياء، وإنه خلق أناساً للجنة وأناساً للجحيم فالله تعالى لم يفرِّق بين مخلوق ومخلوق إذ الخلق جميعاً عباده لكن الذين أصغوا إلى وصية خالقهم ونظروا إلى الشهوة بنوره تعالى، أولئك هم الذين سعدوا فإذا جاؤوا إلى الدنيا كانت الدنيا مظهراً لحقيقتهم ومرآة لما انطبع من الكمال في نفوسهم. والذين أعرضوا عن خالقهم، أولئك هم الذين

شقوا فإذا هم جاؤوا إلى الدنيا تبيَّن للناس خبثهم وشهدوا بأعمالهم على أنفسهم. ذلك هو القضاء والقدر. وتلك هي عدالة الله في خلقه وما الدنيا إلاَّ مِحك للنفوس فلا بدَّ للكامل من أن يظهر فيها كماله ولا بدَّ للمعرض من أن يظهر لؤمه وخبثه. قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1].

﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الذِينَ مِن قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾[3].

ومن علامة السُعداء أنَّك إذا ناديتهم إلى الإيمان أجابوا. ومن علامة الأشقياء أنَّهم إذا ذُكِّروا لا يذكرون وإن يروا سبيل الرُشد لا يتّخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً.

إنَّ هذه الحقائق التي أوردناها في بحثنا هذا مما تتجلَّى به عدالة الله تعالى في خلقه ورحمته بعباده، هذه الحقائق التي شهدها المؤمنون فزادوا بها حباً بخالقهم وغفل عنها الغافلون المحجوبون عنها بشهواتهم ستظهر بعد الموت جليةً واضحةً للناس جميعاً وهنالك يعترفون بفضل خالقهم عليهم ويُقرّون بعدالته ورحمته ويحمدونه على عنايته بهم. قال تعالى: ﴿. . .وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[4].

فالبشر المكلَّفون على ثلاثة أقسام:

- قسم في الأزل نال الشهادة النهائية وهُم الأنبياء والرُسل الكرام.

---

(1) سورة الكهف: الآية (٧).

(2) سورة العنكبوت: الآية (١-٣).

(3) سورة القلم: الآية (٧).

(4) سورة يونس: الآية (١٠).

- قسم إكمال، ناقص عليه بعض الدرجات، في الدنيا يتلافى أمره «**إنَّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1] .
- قسم رسب، إن اجتهد في الدنيا نجح وطريقه الإيمان بواسطة الكون على طريق إيمان سيدنا إبراهيم ﷺ «**إنَّما بُعثت معلِّماً**» أي: للإيمان.

وبلفظ آخر «**بعثت داعياً ومبلِّغاً**»[2] : داعياً للإيمان، ومبلِّغاً لمن بَلَغ.

وكل إنسان لديه أهلية تامة وكل واحد إن فكَّر نبغ وكل امرئٍ وله طريق ففتش عن الشيء الذي إن فكَّرت به رُقيت.. الإنسان مُهيَّأ لهذا الرقي.

---

[1] أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة.

[2] أخرجه ابن عدي ٣/٣٩.

قصــص الأنبيـــاء

صلوات الله عليهم أجمعين

﴿ أُوْلَئِكَ الذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ.. ﴾

قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
من هم أنبياء الله ورسله الكرام

الأنبياء والمرسلون أُناس مثلنا ولدوا كما ولدنا وأخرجهم الله من بطون أُمهاتهم كما أخرجنا، وقد جعل الله لهم أزواجاً وذُريةً. وهم والحالة هذه لا يختلفون عن البشر من حيث أصل الخليقة والتركيب الجسمي في شيءٍ، فهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة:

﴿وَقَالُوا مال هَذَا الرَّسول يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشي في الأَسْوَاقِ. . ﴾[1].

﴿وَمَا أَرْسَلنا قَبلَكَ مِنَ المُرسَلينَ إلاَّ إنَّهمْ لَيَأْكُلونَ الطَّعامَ وَيَمْشونَ في الأَسْوَاقِ. . ﴾[2].

وإذا كان الأنبياء والمرسلون لا يختلفون عن الناس من حيث أصل الخلقة والتركيب الجسمي في شيءٍ، فلِمَ امتازوا على غيرهم حتى أصبحوا جديرين بتلقي رسالات ربهم ودعوة أقوامهم إلى خالقهم؟؟.

أقول: لـمَّا كان الإنسان في عالم الأزل قد تصدَّى وحده لحمل الأمانة طمعاً في بلوغ تلك المنزلة العليا التي عرضها الله تعالى على المخلوقات كلها لذلك ميَّزه تعالى بجوهرة ثمينة وخصَّه بجهاز عظيم يستطيع إذا هو استفاد منه حق الاستفادة أن يتوصل إلى تلك المنزلة التي تصدى لها، ويتفوق على العالمين.

وما هذه الجوهرة، وما ذاك الجهاز.. سوى التفكير!.

---

[1] سورة الفرقان: الآية (٧).

[2] سورة الفرقان: الآية (٢٠).

بهذه الجوهرة الثمينة، أي: بهذا التفكير تميَّز الإنسان على الحيوان وسائر المخلوقات، وبالتفكير يستطيع أن يتوصل إلى معرفة خالق الكون معرفة لا يُدانيه فيها أحد من المخلوقات، وبالتفكير يستطيع الإنسان أن يهتدي إلى الطريق القويم والصراط المستقيم، وبه يتفاضل النّاس ويُصبحون على درجات فمن كان أكثر تفكيراً كان أكثر سبقاً ورُقيّاً. وما الأنبياء والمرسلون إلاَّ أُناس تميَّزوا عن سواهم باستفادتهم من هذه الجوهرة الثمينة أتم استفادة فقد بدأوا منذ أن بدأ وعيهم يظهر يُفكِّرون في أنفسهم وفيما حولهم، فنظروا في الأرض وما عليها، والسماء وما فيها، نظروا في الشمس والقمر والنجوم نظرات ملؤها التأمل والتفكير والإعجاب والتقدير فأوصلهم نظرهم وتأملهم وهداهم تفكيرهم إلى وجود قوةٍ عظيمةٍ ساهرة، ويد حكيمة مسيِّرة، تمد هذا الكون كلّه بالحياة والتربية وتدبِّر أموره كلّها، فلا تنقطع عنه طرفة عين ولا تغفل عنه لحظة.

هنالك خشعت نفوسهم لهذا الخالق الكبير إجلالاً وتقديراً وسجدت لهيبته خشيةً وتعظيماً، وعكفت في أبواب محبته ومشاهدة كماله لا تبرح لحظة ولا تغيب برهة، فهم دوماً في اتجاه وإقبال وهم دوماً في مشاهدة أنوار ذي الجلال والجمال، وفي الحديث الشريف: «**نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا..**»[1].

إنَّ هذا الإقبال الدائم على الله وهذه الاستنارة المتواصلة بنور الخالق تعالى جعلت في قلوب هؤلاء الرجال بصيرة نافذة فرأوا بنور الله تعالى الحق من الباطل، وميَّزوا الشر من الخير، وشاهدوا الطريق السوي، واهتدوا إلى الصراط المستقيم.

[1] أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/١٣٦ عن عطاء.

وكانت هذه الرؤية المستمرة والمشاهدة المتواصلة سبباً في عصمة نفوسهم من الزلل وحفظها من الخطأ، وطهارتها من الأدران ووقايتها من الوقوع في السيئات، كما كان إقبالهم الدائم على خالقهم سبباً في اشتقاق الفضيلة والكمال وامتلأت قلوبهم بالرأفة والرحمة والعطف والحنان، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ. . ﴾[1].

وبمثل هذه التقوى والإقبال على الله، وبمثل هذه الصفات الكاملة التي تحلَّت بها نفوسهم وتلك الرحمةِ التي اكتسبوها من الله صاروا أهلاً لأن يصطفيهم خالقهم وجديرين بأن يختارهم ويجتبيهم ربهم ليكونوا هُداة لخلقه قائمين بتلقي رسالته وتبليغها لعباده. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخذ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكرَمُونَ ۞ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقول وَهُم بِأَمرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[2].

﴿وَجَعَلْنَاهُم أئمةً يَهدونَ بِأمرِنَا وَأَوْحَينا إلَيْهِم فِعلَ الخَيرَاتِ وإقَامَ الصَّلاة وإيتَاءَ الزَّكاةِ وكَانُوا لَنا عابِدِينَ﴾[3].

---

[1] سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

[2] سورة الأنبياء: الآية (٢٦-٢٧).

[3] سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

قصة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام

من هو آدم ﷺ:

آدم هو أوَّل إنسان أوجده الله تعالى على سطح هذه الأرض، وجعله أباً للبشر جميعاً، فمنه نسل النَّاس كلّهم وإليه ينسبون وهو ﷺ أوَّل الأنبياء والمرسلين، وبه بدأ الله تعالى النبوة والرسالة كما ختمها بسيدنا محمَّد صلوات الله عليه، وقد خلق الله تعالى سيدنا آدم ﷺ من تُراب ثمَّ سواه ونفخ فيه الروح فإذا هو إنسان كامل وبشر سوي، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

﴿الذي أَحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ﴾[2].

وقد بدأ الله تعالى خلق الإنسان من تراب أي من الأرض لتكون هناك موافقة بينه وبين الأغذية التي منها بناء جسمه وعليها نماؤه، فالنباتات والفواكه والأغذية كلها إنما تنشأ من التراب وإليه تعود، وكذلك جسم الإنسان نشأ في أصله من التراب وإليه يعود.. وإلى ذلك تشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[3].

وبما أنَّ الإنسان في عالم الأزل تصدَّى لذلك المقام العالي الذي يصل به إلى أسمى درجات المعرفة بربِّه ويُصبح جديراً بنيل أكبر قسط من تجلِّيه تعالى وحيث أنَّ آدم ﷺ كان في ذلك اليوم العظيم من أولئك الرجال الصادقين الذين اشتقوا بإقبالهم العالي

---

(1) سورة آل عمران: الآية (٥٩).
(2) سورة السجدة: الآية (٧).
(3) سورة طه: الآية (٥٥).

على الله العدل والحكمة والرأفة والرحمة وسائر صفات الكمال لذلك اختاره ربُّه بما علمه فيه من صدقٍ وسبقٍ في ميادين الحبّ والإقبال، وبما علمه فيه من الاستعداد للكمال لأن يكون خليفته في أرضه يُبلِّغ النّاس بالنيابة عنه تعالى شريعته التي فيها خيرهم وسعادتهم كما يكون لهم سراجاً منيراً يشهدون بصحبته كمال وجمال من هو في الأصل منبع كل جمال وكمال ذلك هو مقام الخلافة الذي كان عليه آدم ﷺ حقيقاً به وأهلاً له، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ للمَلائِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً﴾[1].

وقد أخبر تعالى ملائكته بهذا الإخبار تعريفاً لهم بمكانة هذا المخلوق الكريم لترتبط نفوسهم بهِ وتُقبل على خالقها بصحبته فتزداد بهذا الخالق معرفة وفي الكمال الإلَهي شهوداً.. وحيث أنَّ الملائكة رأوا ما فعله إبليس وذريته من قبل وما ظهر من الفساد في الأرض قالوا في أنفسهم: ﴿..أَتَجعلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّماءَ..﴾: أي هل يكون من هذا الخليفة ما كان من إبليس وذريته من قبل من الفساد في الأرض وسفك الدماء.

إنهم طلبوا في سرِّهم الخلافة لأنفسهم لما يعلمونه من صدقهم مع خالقهم وعدم ميلهم إلى ما سواه. قالوا ذلك في سرِّهم وهم لا يعلمون ما انطوت عليه نفس آدم ﷺ من الكمال، كما لا يعلمون ما اشتمل عليه قلبه من الحبِّ العالي لربِّه وسبقه إيَّاهم في ذلك المضمار سبقاً لا يُدانيه فيه أحد منهم أجمعين ولذلك خاطبهم ربهم

[1] سورة البقرة: الآية (٣٠).

بقوله: ﴿ . . إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وبما أنَّ الله تعالى لا يُعطي أحداً من الخلق إلاَّ ضمن العدالة وبما يظهر منه من الاستعداد والأهلية، وحيث أنَّ الأنفس لا يمكن أن ترتبط بأحد إلاَّ إذا عاينت تفوقه عليها وشهدت سبقه شهود عيان، لذلك أراد تعالى أن يُري الملائكة أهلية آدم ﷺ، وما وقر في نفسه من كمال وما انطوى عليه قلبه من حبٍّ لخالقه فخلقه تعالى كما ذكرنا من قبل من طين، ثمَّ سوَّاه ونفخ فيه الروح فإذا هو إنسان مثلنا لا يختلف عن واحد منَّا في تركيبه الجسمي في شيء. ونظر سيدنا آدم ﷺ ساعتئذٍ في نفسه، ونظر فيما حوله من آيات الكون ونظامه فاهتدى لخالقه وقدَّره تقديراً، شاهد ﷺ من حكمة الحكيم ومن علم العليم وقدرة القدير ورحمة الرحيم وغير ذلك من الأسماء الحُسنى ما جعله يهيم في محبة خالقه سابحاً ويستغرق في شهود كماله تعالى استغراقاً. وإن شئت فقل صار لآدم عليه السلام بإقباله العظيم على ربِّه معرفةً بأسمائه تعالى كلها معرفةً لم يتوصَّل إليها الملائكة المقربون جميعاً. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . ﴾.

وإذاً فليست معرفة الأسماء التي استحق بها آدم ﷺ أن يكون خليفة الله في أرضه معرفة أسماء الحيوانات والنباتات والقصعة والوعاء كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس، إنَّما هي معرفة أسماء الله الحُسنى جلَّ جلاله.

والآن بعد أن علم آدم من أسماء الله الحُسنى ما علم، أراد تعالى أن يُبيِّن للملائكة الذين طلبوا الخلافة لأنفسهم منزلة آدم عليه السلام وأنَّه حقيق بأن يتسنَّم هذا المقام

---

[1] سورة البقرة: الآية (٣٠).

وبأن يكون لهم إماماً يدخلون بمعيَّته على الله. ولذلك أمر آدم عليه السلام أن يعرض عليهم أسماء الله تعالى ويسألهم عنها.

وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . .ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ. . ﴾: أي أنَّ عرض الأسماء كان بواسطة آدم ﷺ على الملائكة.

ثم أجرى تعالى المناقشة بين آدم والملائكة، إذ أُمر ﷺ أن يسأل الملائكة عمّا ينطوي تحت هذه الأسماء الحُسنى من معانٍ، وسأل آدم ﷺ عن اسم الله تعالى الرّحمن وعن اسمه القادر وعن اسمه الحكيم وإلى غير ذلك من الأسماء الحُسنى وطلب منهم أن يُنبؤوه عمّا عرفوا عن هذه الأسماء أي عمّا شاهدوه من رحمة الله وقدرته وحكمته وغير ذلك ممَّا ينطوي تحت الأسماء الحُسنى من المعاني السامية التي لا يعرفها إلاَّ من كان له إقبال على خالقه.

وإلى هذه المناقشة بين آدم ﷺ وبين الملائكة تشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . .أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي أنَّ الله تعالى أمرهم أن يبيِّنوا ما عندهم من المعرفة عن كل اسم من هؤلاء الأسماء الحُسنى التي عرضها عليهم آدم ﷺ، فإن كانوا صادقين في أنَّهم أهل للخلافة سبقوا آدم في البيان فإنَّ الخلافة لا تُعطى جزافاً إنَّما تُعطى لمن عرف أسماء الله تعالى الحُسنى معرفةً عالية فاق بها غيره وبزَّ بها وسبق كلَّ من عاصره فإن هو بلغ هذه المعرفة العالية كان حقيقاً بذلك المقام مقام الخلافة.

هنالك أجاب الملائكة، كل واحد منهم جواباً متناسباً مع إقباله على الله وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لا عِلمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ

﴿العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾[1].

أي أنهم خاطبوا ربهم قائلين: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: ما أعظم كمالك!. لقد أجبنا بحسب ما علمناه بإقبالنا عليك و ﴿أَنتَ العَلِيمُ﴾: بحال كل واحدٍ منَّا وبدرجة إقباله وأنتَ ﴿الحَكِيمُ﴾: الذي تكشف لكل مخلوق عن المعرفة بحسب ما تراه منه من صدقٍ وإقبال.

وبعد أن بيَّن الملائكة ما عرفوه عن أسماءِ الله أراد تعالى أن يُريهم معرفة آدم ﷺ التي سبقهم بها وأنه ﷺ حقيق بمقام الخلافة ولذلك أمره أن يُبيّن لهم بدوره فيتكلَّم ويُنبِّئهم عن أسمائهم أي عن أسماء الله تعالى الحُسنى التي كانوا قد تحدثوا عنها آنفاً، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسمَائِهِمْ..﴾: أي تكلَّم أنت لهم عن الأسماء الحُسنى التي كانوا شرحوها وتكلَّموا عنها.

هنالك أخذ آدم ﷺ يُبدي ما لديه من المعرفة عن أسماء الله تعالى تلك المعرفة العالية التي توصَّل إليها بإقباله العظيم، وبيَّن آدم عليه السلام بياناً وتكلَّم عن أسماء الله الحُسنى وعمَّا ينطوي تحتها من كماله تعالى كلاماً سبق به الملائكة جميعاً وهنالك خاطبهم ربهم مبيِّناً لهم أنه لم يُعطِ آدمَ ذلك المقام جزافاً إنَّما عطاؤه له بحسب ما علمه فيه من سبق في مضمار الحُب والإقبال. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿..فلَمَّا أَنبَأَهُم بأَسْمَائِهِمْ..﴾ أي: فلمَّا بيَّن آدم للملائكة عن تلك الأسماء الحُسنى ما بيَّن وظهر تفوُّقه عليهم عند ذلك خاطبهم ربهم بما تُشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿..أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّموات وَالأَرْضِ..﴾.

[1] سورة البقرة: الآية (٣٢).

ثم بيَّن تعالى أنه عليم بما في نفوسهم من قبل أن يبدوا ذلك ويُبيِّنوه فقال تعالى: ﴿ . .وَأَعلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُم تَكْتُمُونَ﴾[1]: أي وأعلم ما تُبدون الآن من الإقرار بالحق وما كنتم تكتمون من طلب الخلافة لأنفسكم.

أقول: وهذا الخطاب الذي جرى بين الله تعالى وملائكته ممَّا تُشير إليه كلمة (**قالوا**) حينما يكون الكلام عن الملائكة وكلمة (**قال**) حينما يُشير الكلام إلى قوله تعالى، كل هذا القول إنَّما كان قولاً نفسيّاً، فقد قال الملائكة ذلك في أنفسهم كما سمعوا الجواب عليه في سرِّهم فكلما سألوا في أنفسهم سؤالاً ألقى الله تعالى في نفوسهم جواب ذلك السؤال.

ونعود الآن إلى القصة التي نحن بصددها فنقول:

لـمَّا ظهر للملائكة سبق آدم عليه السلام وتفوقه عليهم في المعرفة والإقبال على الله هنالك أمرهم الله تعالى أن يقبلوا عليه بصحبته ﷺ صحبة آدم فيتخذوه سراجاً منيراً لنفوسهم وإماماً لهم في إقبالهم على خالقهم وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وإِذْ قُلْنَا لِلمَلائكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ. . ﴾.

وليس المراد من السجود انحناء الرأس أو وضع الجبهة والكفين والقدمين على الأرض كما يفهمه العامة من الناس، فإن هذا الوضع الجسدي هو في الحقيقة رمز وتعبير لسجود النفس، وسجود النفس هو تقديرها لصاحب الفضل وطلبها حاجتها منه.

فإذا سجد أحدنا في صلاته فمعنى ذلك أنه يقدِّر فضل خالقه عليه في دلالته إيَّاه وهدايته إلى ما فيه خيره وسعادته كما يطلب منه المعونة والإمداد بالقوة على تطبيق

[1] سورة البقرة: الآية (٣٣).

تلك الدلالة السامية التي أمره بها عقب قراءة الفاتحة. وما سجود الملائكة لآدم ﷺ إلاَّ تقديرهم وخضوعهم النفسي لمقام هذا الرسول الكريم وطلبهم الإقبال بمعيَّته على الخالق العظيم، لأن الأدنى إذا ارتبطت نفسه بالأعلى وأقبلت بصحبته على الله تعالى فهنالك ينعكس فيها ما ارتسم في نفس من ارتبطت به من حبٍّ لله ومعرفة به وإقبال عليه وعندئذٍ تزداد بهذا الارتباط حبّاً ومعرفة وإقبالاً لحظةً فلحظة وآناً فآناً وتلك هي حقيقة الشفاعة شفاعة ارتباط نفس بنفس وصحبتها معاً في طريق إقبالها على الله ليسمو القوي بالضعيف وينهض الأعلى صَعَداً بالأدنى ويعرج به في معارج القدس والكمال كما عرجت نفس الرسول محمَّد ﷺ بنفوس الرُسل الكرام ليلة الإسراء.

وكذلك الملائكة حينما أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم ﷺ ارتبطت نفوسهم مستشفعة به عارجة بمعيَّته في إقبالها على الله. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُواْ﴾.

نعم.. سجد الملائكة كلُّهم كما يُشير القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[1] وامتنع إبليس عن السجود وأبى واستكبر. أي وجد في نفسه إباءً عن طاعة الله واستعلاءً عن السير بصحبة هذا الرسول الكريم.

وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿..فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ..﴾. وقد بيَّن لنا تعالى سبب إباء إبليس واستكباره لنتوقَّى ذلك نحن ويكون لنا منه درس بليغ فقال تعالى: ﴿..وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2] أي: إن كفر إبليس هو الذي جعله يأبى ويستكبر.

---

[1] سورة الحجر: الآية (٣٠).

[2] سورة البقرة: الآية (٣٤).

وكلمة (**كَانَ**) تفيد أنَّ إبليس كان كافراً من قبل أن يأمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم ﷺ. وأمَّا كلمة (**مِنَ الكَافِرِينَ**) فمعناها من المنكرين نعمة الخالق وغير المقدِّرين لفضل الله لأن الكفر هو نُكران النعمة والإعراض عن المحسن وعدم تقدير فضله، وليس هو نكران وجود الخالق ولا عدم الاعتراف به. والآيات التالية تُشير إلى هذا المعنى وتبيِّن لنا اعتراف إبليس بربِّه وإقراره بخالقه، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ . . فَسَجدُوا إِلاَّ إِبليسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾[١].

﴿ . . قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَار وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[٢].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٣].

فإبليس كما يظهر لنا من هذه الآيات وغيرها من الآيات الواردة في القرآن الكريم، مُقرٌّ بالأصل بوجود الخالق معترف بربِّه غير أنه ليس في نفسه تقدير لفضل الله ونعمته، وليس له إقبال على خالقه ولا معرفة بكماله ولا ميل إليه.

أقول: ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ الإنسان إذا هو لم يفكِّر في نعمة الخالق ولم يرَ فضل الله عليه فليس بمؤمن حقّاً وإن كان مقرّاً ومعترفاً بخالقه وهو لا يستطيع أن يعرف مقام الرُسل الكرام ولا يمكن لنفسه أن ترتبط بهم ولا أن تدخل بصحبتهم على الله بل يظل مطروداً بعيداً عنهم بعيداً عن الله.

ونستطيع هنا وبالاستناد إلى الآيات السابقة أن نرد كثيراً من المزاعم الخاطئة التي يزعمها فريق من الناس إذ يقولون أنَّ إبليس كان رئيس الملائكة وكان شديد العبادة

---

[٣] سورة الإسراء: الآية (٦١).

[٣] سورة الحجر: الآية (٣٦).

[٤] سورة الأعراف: الآية (١٢).

لربه، وإنه لم يترك بقعة في السماء إلاَّ سجد فيها. ومع ذلك بلحظة واحدة حبطت أعماله كلها، فهم يزعمون هذه المزاعم ويُريدون من وراء ذلك أن يُلقوا الشك في قلوب الناس بعدالة الله وأن يجعلوهم دوماً غير مطمئنين لما يقدِّمون من صالح الأعمال.

فهذه المزاعم كلها مخالفة لصريح القرآن، فإبليس كما رأينا لم يكن مقبلاً على خالقه، ولم يسجد له سجدة واحدة بل كان من الكافرين.

وإبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . . فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ كَانَ مِنَ الجِنّ فَفَسَقَ عَنْ أَمرِ رَبِهِ . . ﴾[1].

وبعد أن أظهر الله تعالى للملائكة تفوق آدم ﷺ عليهم في علمه ومعرفته بكمال ربِّه أراد تعالى أن يُريهم سبقه إياهم في حبِّه لخالقه.

وبياناً لمقام آدم ﷺ بالنسبة للملائكة في حبِّه لربِّه وتقريباً للحقيقة من الأذهان نقدِّم المثال الآتي فنقول:

هَبْ أن أُمّاً أوصت ولديها الصغيرين بأن لا يركضا في صحن الدار مخافة أن يُصابا بأذى وفي يومٍ عادت الأم بعد غياب طويل، فما أن رآها أحدهما حتى هرع إليها وأنساه حبُّه إيَّاها أمرها فهوى ساقطاً على الأرض أمَّا الآخر فذكر أمر أمه وتحذيرها فلم يهرع إليها كما هرع الأول. ترى أي الولدين أشد حبّاً لأمِّه؟. أليس الذي أنساه حبُّه إيَّاها أوامرها هو الأكثر ارتباطاً والأشد حبّاً لها؟.

---

[1] سورة الكهف: الآية (٥٠).

أقول: وكذلك الملائكة الكرام علم الله تعالى منهم أنه مهما بلغ أحدهم في المحبة فليس يصل لدرجة يُنسيه معها حبُّه لخالقه أوامره بخلاف آدم ﷺ فقد سبقهم في هذا المضمار سبقاً لا يدانونه فيه.

وتعريفاً للملائكة بمقام هذا الرسول وإظهاراً لسبب تفوقه عليهم في العلم والمعرفة جعل الله تعالى طريق آدم ﷺ إلى تسنُّم مقام الخلافة بشكل تظهر فيه حقيقة هذا الرسول الكريم وما اشتمل عليه قلبه من الحب العالي لخالقه لذلك وبعد أن سجد الملائكة لآدم ﷺ وأبى إبليس مستكبراً، أمر الله تعالى هذا الرسول أن يسكن وزوجه الجنة، وحذَّرهما من عداوة الشيطان لهما ومكره، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا . . ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[2].

ولا بد لنا لفهم مقام هذا الرسول السامي من أن نبيِّن مفهوم الجنة وما ينطوي تحت هذه الكلمة من المعنى الدقيق فنقول:

ليس المُراد من كلمة (**الجنة**) قاصراً على ذلك النعيم المادي وليس نعيم الإنسان في الجنة قاصراً على التمتع بذلك المكان الجميل ذي الأشجار الوارفة والأنهار الجارية والفواكه المختلفة والظلال المديدة. فإنَّ هذه الأشياء وما شاكلها من الأشياء المادية لا تجعل من الجنة جنة ما لم يكن الإنسان إلى جانبها في سعادة نفسية وسرور معنوي

---

[1] سورة البقرة: الآية (٣٥).
[2] سورة طه: الآية (١١٧).

وإنه لا بدَّ لمن يُقيم في مكان جميل اجتمعت فيه صنوف المسرات من أن يكون مسروراً في داخلية نفسه حتى يشعر بالسعادة ويجد نفسه في جنة.

فقد يُقيم طالبان في مكان جميل لم ترَ العين مثله، وفيما هما جالسان يبلغ الأول نبأ نجاحه في فحصه وصدور قرار تعيينه في وظيفةٍ من الوظائف العالية، وأزف موعد فحص الآخر وتأخرت عليه وسيلة النقل التي تصل به إلى مكان الفحص، تُرى هل يكون حال الثاني كحال الأول؟.

لا ريب أنَّ ذلك المكان يكون على الأول جنة لما يُخالط قلبه من السرور الداخلي كما يكون على الثاني جهنماً لما يُساوره من القلق والاضطراب.

وإذاً فالجنة مأخوذة من كلمة (**جَنَّ**) بمعنى: ستر وأخفى، وهي في حقيقتها ذلك الشعور الداخلي الجميل المستور عن الآخرين يشعر به صاحبه وينعم ولا يطَّلع عليه أحد من الناس. أقول ويُشير إلى هذا المعنى ما جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قِيلَ وما رياض الجنَّة؟. قال مجالِسُ الذِكر**»[1].

وقوله ﷺ: «**ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنَّة ومنبري على حوضي**»[2].

فقد عبَّر ﷺ عن ذلك المكان الذي بين منبره وقبره الشريف بأنه روضة من رياض الجنة لما يجده المؤمن الجالس في ذلك المكان بسبب ارتباط نفسه بنفس رسول الله وإقبالها بمعيَّته الشريفة على الله من النعيم النفسي والحياة بالقرب من الله، وكذا الأمر في حِلَق الذكر، وكذلك المؤمن في الدار الآخرة تجده في جنة بسبب ما يجده من النعيم

---

[1] أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسَّنه ج١٣ ص٤٤.

[2] متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله زيد (مسلم ج٢ ص١٠١٠ ح ٥٠٠).

النفسي العظيم بقربه من خالقه، وإنه لينتقل في منازل القُرب الإلّهي، في جنَّات، فمن حالٍ إلى حال أعلى ومن نعيم إلى نعيم أسمى. وبما أنَّ الكمال الإلّهي ليس له حد ولا انتهاء فليس للجنة ولا لنعيم أهلها فيها حد ولا انتهاء. ويرافق ذلك النعيم النفسي نعيم مادي مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من فواكه وثمرات وأنهار جارية من الخيرات ويتزايد هذا السرور المادي بنسبة متوافقة مع تزايد ذلك النعيم المعنوي لحظةً فلحظة وآناً فآناً، وإلى ذلك يُشير قوله تعالى: ﴿..كلَّما رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرةٍ رِزقاً قَالُوا هَذا الذي رُزِقنا مِن قَبلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً..﴾[1].

فهو متشابه مع سابقه في شكله مختلف عنه في ازدياد صاحبه تنعماً من حيث مرآه وطعمه، وليس لفضل الله كما ذكرنا حدٌّ ولا انتهاءٌ. ونعود بعد أن قدَّمنا ما قدَّمناه عن الجنة إلى قصة سيدنا آدم ﷺ فنقول:

لقد أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن يسكن وزوجه الجنة فينعم بالقرب من خالقه ويتمتَّع بشهود الجمال والكمال الإلّهي ويستغرق به، وأَمَرَهُ إلى جانب ذلك أن يأكل وزوجه من الجنة رغداً.

ولكن ما هي حقيقة هذا الأكل، وكيف يأكل أهل الجنة في الجنة؟

أقول: لا بدَّ لبيان هذه النقطة من أن نقدِّم كلمة نعرِّف فيها الإنسان بذاته، وعناصره التي يتركَّب منها ويقوم عليها وجوده فنقول:

الإنسان مركَّب من نفس وجسد وروح. **فالنفس**: هي ذات الإنسان المعنوية الشاعرة والمدركة، فهي التي تسر وتفرح، وهي التي تتكدَّر وتحزن وهي التي تبكي وتتألم، وهي

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٥).

التي تضحك وتتنعَّم، فإذا وقف أحدنا مثلاً فجأةً لأول مرة أمام بحر عظيم تجد قلبه يمتلئ رهبةً وجلالاً، وإذا شاهد جريحاً متألماً تجد قلبه يذوب عليه حسرةً، وإذا سمعنا بنجاحنا في فحص أو أمر هام فإننا نطير فرحاً، والحقيقة أنَّ نفوسنا هي التي ترهب وتجل وهي التي تتألم وتتحسر، وهي التي تفرح وتُسر، وهي التي ترغب وتشغف وتُحب، وإن شئت فقل نفوسنا هي التي تتجه إلى الخالق فتُصلِّي له وتركع وتسجد. وتُسبِّح وتُمجِّد، وتشكر وتحمد، وتتوب إليه وتُعاهده. وما هذه الجوارح والحواس إلاَّ نوافذ تطَّلع منها النفس على العالم الخارجي، أمَّا هي فمستقرة في الصدر وأشعتها سارية في الأعصاب المنتشرة في سائر أنحاء الجسم. فهي تُشاهد الأشياء من نوافذ العينين وتتلقف الأخبار وتسمعها عن طريق الأذنين، كما تتذوق الأشياء وتتعرف إلى طعومها بواسطة اللسان وتلمسها بواسطة الجلد، وهي والحالة هذه حبيسة في هذا الجسد والجسد خادم لها وآلة بين يديها.

أمَّا الروح: فهي ذلك النور الإلَهي الذي يسري في الجسم وفي مجاري الدم عظيمها ودقيقها فيبعث في الجسم الحرارة ويؤمِّن فيه الحياة والنماء. فبالروح قوام الجسم وبقاء وجوده، وبها استمرار حياته، فإن هي انسحبت منه خمد الجسم وبطلت فيه الحركة وفُقِدَت منه الحياة. والروح كما نرى شيء والنفس شيء آخر، والروح والجسد معاً خادمان لهذه النفس يُساعدانها على القيام بما تتطلبه من الأعمال.

هذا هو حال الإنسان في دنياه، النفس في قفص الجسد، والروح تبعث في الجسد الحياة، **والجسد** محيط بالنفس كما يُحيط القفص بالعصفور وكما تُحيط زجاجة المصباح الكهربائي بالشعلة من كل الجهات.

أمَّا حال الإنسان في الجنة فعلى العكس: فنفس الإنسان في الجنة هي المحيطة بالجسد وإن شئت فقل: في الجنة تلبس النفس الجسد وتُحيط به من كل جهاته، فهي ثوبه ونورها محيط به كما يُحيط لهب الشمعة بالفتيل. فإذا كان الفتيل هو الجسم فاللهب والشعلة هي النفس.

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ حال الإنسان في الجنة مختلف كل الاختلاف عن حاله في هذه الحياة الدنيا التي نحياها الآن وإذا كانت نفس الإنسان في هذه الحياة الدنيوية تتذوَّق الأشياء بواسطة الفم وعن طريق اللسان، وتشاهد من وراء حجاب ولا ترى إلاَّ خيالها وصورها بواسطة العين، وتسمع الأصوات بواسطة الأذن فلا تدرك إلاَّ صدى الصوت، ففي الجنة حالها بعكس ذلك كله. فهي لا تتذوَّق بواسطة اللسان ذلك العضو الصغير، ولا تشاهد بواسطة العين كما لا تسمع بواسطة الأذن.

وبما أنَّها تلبس الجسد يومئذٍ وتُحيط به فهي تتذوَّق بكلِّيتها وكلها ذوق وتشاهد بكلِّيتها وكلها عيون، وكلها سمع وكلها شعور، تذوق وتسمع وتنطق وترى بكلِّيتها بصورة مباشرة دون وساطة عضو من الأعضاء ويكون ذوقها والحالة هذه عظيماً وشهودها واسعاً، ونعيمها تاماً.

وإذا كان الإنسان في حاله الدنيوي يشبع ولا يعود يجد لذة الطعام بعد تناوله كمية محدودة منه، فالإنسان في الجنة لا يشبع ولا يمل من شيء كما لا يجوع ولا يعطش، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[1].

[1] سورة طه: الآية (١١٨-١١٩).

ذلك لأنَّ أشعة النفس بذاتها تسري في الجنة إلى الأشياء وتُخالطها كما تسري أشعة الشمس إلى أعماق الماء فتروي ريّاً متواصلاً، كما تمتد إلى الفاكهة والأطعمة، وكلها يومئذٍ ألسنة فتذوق ذوقاً متتالياً، وتنعم نعيماً متزايداً دون أن تشعر بثقل أو ملل أو شبع فنعيمها دوماً في ازدياد لا يُنغِّصها منغِّص. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا . . ﴾[1].

هكذا كانت حال سيدنا آدم ﷺ في الجنة، وذلك كان أكله مع زوجه. كانت نفساهما محيطة بجسديهما يأكلان من الجنة رغداً وهما إلى جانب ذلك في شهود دائمي لجمال الخالق وكماله، ونعيم متواصل بهذا القُرب من الله.

وقد نهاهما الله تعالى عن أن يقربا الشجرة لما في ذلك من الظلم لأنفسهما. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . .وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

ولكن ما هذه الشجرة التي نهاهما الله عنها؟. وماذا نفهم من كلمة (**وَلاَ تَقْرَبَا**)؟. وما هو هذا الظلم الذي ينالهما بسبب ذلك؟

أقول إنَّ كلمة (**الشَّجَرَةَ**) هنا لا تعني شجرة خاصة ذات نوع معيَّن، إنَّما تعني عامة الجنس وتشمل كل شجرة.. فالقمح والتفاح والرمان، وإن شئت فقل جميع الأشجار والنباتات تنطوي تحت كلمة (**الشَّجَرَةَ**)، لأنها في حقيقتها واحدة من حيث احتواؤها على المادة التي يكون بها نماء الجسم وسريان الحياة فيه، وإن كانت مختلفة في أنواعها وطعومها وأشكالها.

---

[1] سورة الرعد: الآية (٣٥).

[2] سورة البقرة: الآية (٣٥).

أمَّا المراد من النهي عن قرب الشجرة الواردة في كلمة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، فيعني عدم وضع ثمرة الشجرة في الفم ودخول مادتها إلى الجوف، وتوضيحاً لهذا المعنى نضرب المثل الآتي فنقول: لا نستطيع أن نقول إنَّ الشمس قريبة من الأرض وإن كانت أشعتها منصبة على الأرض سارية في مياهها وبحارها ملامسة كل جزء من أجزاء سطحها ما دام جرمها بعيداً عنها، كذلك سيدنا آدم ﷺ وإن كانت نفسه سارية إلى تلك الثمرات متصلة بها متنعمة بذوقها فهي غير قريبة منها ما دامت مادة الثمار بعيدة عن جسمه ولم تدخل إلى جوفه، وقد نهاه الله تعالى وزوجه أن يقربا الشجرة أي أن يتناول الثمار ويضع مادتها وجرمها في فمه "أي الأكل الجسمي مع النفسي".

وتُشير كلمة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن وضع الثمرة في الفم ودخولها إلى الجوف يكون سبباً في تبدّل الحال الذي كانا عليه في الجنة. فوضعهما بعد دخول الثمرة إلى الجوف يتطلَّب من التعب والعناء وبذل المجهود في سبيل الحصول على الطعام وتأمين الغذاء اللازم للجسم مالا يتطلبه حالهما الذوقي الأول. "النفسي فقط دون مشاركة الجسد".

وبشيءٍ من التفصيل نقول كان سيدنا آدم ﷺ وزوجه يتذوقان في الجنة ذوقاً دون أن يبذلا جهداً في زراعة أو حصد أو أي عمل من الأعمال التي يتطلبها تحضير الأطعمة، فقد كان الحكم للنفس وكانت لها السيطرة على الجسد وما كان الجسد إلاَّ مركزاً لهذه النفس. أمَّا بعد تناول الثمرة ودخول مادتها إلى الجوف فسيتغير بها الحال، ستكون السيطرة للجسم وستصبح النفس ضمن هذا الجسد كما نحن عليه الآن في

حالنا الدنيوي ولا ريب أنَّ هذا الحال مختلف كل الاختلاف عن الحال الأول وستكون الحياة متوقفة على تغذية الجسد وتقويته وتزويده بالمادة اللازمة، وسيضعف هذا الجسد وسيجوع ويعطش، وبالتالي ستتألم ساعة احتياج الجسد لهذه المادة.

ولا شك أن هذا يتطلَّب من الإنسان جهداً دائباً وعملاً متواصلاً. وفضلاً عن أن تذوق النفس وتنعمها بالأشياء سيكون من وراء حجاب وبالواسطة، فلا تستطيع أن تتذوق الأشياء إلاَّ عن طريق اللسان وكذلك حالها في الرؤية والسمع والشم، وإلى جانب ذلك كله لا تعود النفس تتنعَّم بالأشياء بمقدار واسع لا حدَّ له فإنَّ الجسم يكتفي بكمية معينة من الطعام والشراب، فإذا تناول أكثر من حاجته تضايق وبالتالي تألَّمت النفس من هذه الزيادة، وعلى هذا فالذوق في هذا الحال محدود والإنسان مرغم على العمل لا يستطيع أن يقعد عنه تأميناً لحاجات الجسد، وفي ذلك ما فيه من التعب وبذل المجهود وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿. . .فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[1] .

لقد عرف سيدنا آدم ﷺ ما يتبع الأكل من الشجرة من متاعب الحياة وما يتطلبه العيش بعد الأكل منها من جهد وعناء، وعرف أنَّ الله تعالى إنَّما نهاه عن الأكل منها وقاية له من تلك المتاعب، غير أن حُبّه العظيم لخالقه أنساه وصية الله تعالى وتلك هي المرتبة التي أهَّلت هذا الرسول الكريم لأن يكون خليفة الله في أرضه وأن يسجد له

---

[1] سورة طه: الآية (١١٧).

الملائكة الكرام. فقد وسوس له الشيطان أي: خاطبه خطاباً نفسياً فقال: ﴿ . .يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾[1].

والمراد بكلمة ﴿ شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾ أي: الشجرة التي إن أكلت منها خلدت في الجنة أي في ذلك النعيم النفسي الذي تجده بالقرب من خالقك. والمراد بكلمة ﴿وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾: أي ملكت ذلك الحال النفسي الذي أنت فيه فلم تنقطع عن هذا الشهود للكمال الإلهي وظللت دائم الأنس به.

ولعلك تقول: كيف وسوس الشيطان لآدم ﷺ والأنبياء معصومون؟.

فأقول: إذا كان أحدنا اليوم يجتمع بكافر ويتحدث إليه فليس معنى ذلك أنه سيطر على نفسه أو تسلَّط عليها وكذلك الأمر بالنسبة لسيدنا آدم ﷺ فلمَّا كانت نفسه محيطة بجسده كانت مقابلة الشيطان له مقابلة نفس لنفس وكان الخطاب بينهما نفسياً، وليس في ذلك أدنى سيطرة أو تسلُّط على سيدنا آدم ﷺ، وقد أقسم الشيطان لسيدنا آدم ﷺ وزوجه أنه لهما من الناصحين. وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾.

وحيث أن آدم ﷺ عرف عظمة خالقه وجلاله فما كان يظن أن أحداً يجرؤ على أن يحلف بالله كذباً لذلك أقسم له الشيطان ولزوجه بالله، أكل من الشجرة وأكلت معه زوجه حرصاً على البقاء في ذلك الحال النفسي الجميل من الإقبال على الخالق واستدامة لهذا الشهود للكمال الإلهي، وأنساه حب خالقه وصيَّته.

[1] سورة طه: الآية (١٢٠).

[2] سورة الأعراف: الآية (٢١).

وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[1]: أي نسي وصيتنا نسياناً ولم نجد له عزماً على المخالفة، كما تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ..﴾[2]: إلى كذب الشيطان وتغريره وتحذير الإنسان منه.

فدلاَّهما: أي أدناهما من الثمرة وجعلهما يتناولان مادتها ويضعانها في فمهما. والغرور: هو أن يتوهَّم الشخص بأنه يكسب بفعله خيراً عظيماً أكثر ممَّا هو في يده مع أنَّ الحقيقة خلاف ذلك، وكذلك الشيطان إنَّما ﴿فدَلاَّهُمَا﴾ أي: أدناهما من الثمرة. ﴿بِغُرُورٍ﴾ أي: بإيهامه إياهما بأن الأكل منها يكون سبباً في بقائهما في ذلك الحال من الإقبال العالي على الله بصورةٍ دائمية مع أنَّ الحقيقة تخالف ذلك، إذ أن غايته أن يوقعهما في الخجل والحياء من الله بمخالفة وصيَّته، وبذلك يصل إلى مطلوبه من إبعادهما عن الله ومن هنا يتبيَّن لنا عداوة الشيطان للإنسان كما يتبيَّن لنا حب سيدنا آدم ﷺ لربِّه وحرصه على دوام الإقبال عليه.

ولكن ماذا أعقب الأكل من الشجرة؟.

لقد بيَّن لنا ذلك تعالى بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطَانُ عَنْها فَأَخرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ..﴾[3].

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطَانُ عَنْها﴾: أي: أزلقهما وحوَّلهما عن الجنة، أي عن النعيم النفسي الجميل فأخرجهما من ذلك الحال الذي كانا فيه، وتُشير الآية الكريمة في قوله

---

[1] سورة طه: الآية (١١٥).

[2] سورة الأعراف: الآية (٢٢).

[3] سورة البقرة: الآية (٣٦).

تعالى: ﴿فَوَسوَسَ لَهُمَا الشَّيطَانُ لِيُبديَ لَهُمَا مَا وُوري عَنْهُمَا مِن سَوءَاتِهمَا . .﴾[1] إلى غاية الشيطان من وسوسته فقد كان يُريد بوسوسته لهما أن يسوءهما ويحزنهما بتحويلهما عن الله والإقبال عليه. وبالحقيقة كان الحُزن والكرب بعيداً عن آدم ﷺ وزوجه إذ كانا مستغرقين في شهود الجمال والكمال الإلَهي، وما دام الإنسان في حضرة الله مغمورة نفسه بتجلِّيه، عاكفاً في شهود جماله تعالى وتجلِّيه فلا يمكن للكرب والحزن أن يتسرَّب إلى نفسه.

غير أنَّهما لـمَّا ذاقا الشجرة ودخلت نفساهما إلى داخل جسديهما انتبها إلى ما صدر منهما من مخالفة الوصية الإلَهية فتحوَّلت نفساهما عن الله خجلاً واستحياءً وقد استاء آدم ﷺ وزوجه كثيراً من هذا الحال وأحاط بهما الكرب والحزن من ذلك، وهذا هو المراد من كلمة (**سَوْءَاتُهُمَا**): ﴿ . .فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا . . ﴾ أي: ظهر لهما ما يسوءهما من الخروج من ذلك الحال النفسي الجميل الذي كانا فيه فأصبحت حياتهما كرباً وأحزاناً بهذا التحول وذلك الحياء والخجل.

وقد جعل آدم ﷺ وزوجه يُحاولان أن يعود لهما ذلك الحال الأول الذي كانا فيه، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . .وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ . . ﴾[2]. (**وَطَفِقَا**) أي: شرعا وأخذا. (**يَخْصِفَانِ**) أي: يُدنيان منهما، والورق هو: ما ستر الأذى عن الثمر ويكون سبباً في نمائه الجيد ونضارته وحسنه. والمراد بكلمة (وَرَقِ الجَنَّةِ) هنا: ذلك الالتجاء والتذلُّل الذي به يعود لهما ذلك النعيم وتلك الحالة النفسية الجميلة التي كانا فيها، ويكون ما نفهمه من كلمة (**وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ**

---

[1] سورة الأعراف: الآية (٢٠).
[2] سورة الأعراف: الآية (٢٢).

عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ) أي: شرعا في الحال وبادرا إلى الالتجاء إلى الله تعالى والتذلُّل الذي يعيد لهما ذلك التجلي الإلٰهي الذي به نعيم نفوسهما ودوام أنسهما بربهما.

ونتبع الآن شرح الآية السابقة بذكر شرح الآية التالية وهي قوله تعالى: ﴿ . .وَعَصَى آدَمُ رَبَّه فَغَوَى ﴾[1].

لا نستطيع فهم المراد من كلمة **(وَعَصَى آدَمُ رَبَّه)** الواردة في هذه الآية إلاَّ إذا نحن قرنَّاها إلى الآيات الأخرى الواردة في هذا الخصوص كآية: ﴿وَلَقَدْ عَهِدنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾.. ومن هنا نفهم أنَّ المعصية أي مخالفة الوصية قد تكون في بعض الأحيان عن نسيان الوصية لا عن قصد المخالفة ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾: أي أن مخالفة آدم ﷺ لوصية ربِّه كانت عن نسيان الوصية لا عن تصميم وعزم على المخالفة.

أما كلمة **(فَغَوَى)**: فإنما هي بمعنى أخطأ الطريق الموصل إلى الغاية المطلوبة، فآدم ﷺ إنما أكل من الشجرة رغبة في استدامة المشاهدة لذلك التجلِّي وطمعاً في الخلود في هذا الحال من الرؤية للكمال الإلٰهي غير أنَّ أكله من الشجرة لم يوصله إلى مقصده هذا بل كان سبباً في احتجاب نفسه عن ذلك الشهود وتلك الرؤية فما أن دخلت مادة الثمرة إلى جوفه حتى لحقتها النفس كما ذكرنا من قبل وهنالك قُطعت عن ذلك الشهود وغدت مستورة بحجاب الجسد فأصبحت في معزل عن ذلك الحال الأول من مشاهدة الكمال والتجلِّي الإلٰهي، وهي لا تستطيع العودة إليه إلاَّ بعمل تقدِّمه بين

[1] سورة طه: الآية (١٢١).

يديها فيكون لها منه سبيل إلى التغلب على هذا الجسد وسبب إلى الخروج من عدم الرؤية إلى ميدان الرؤية والمشاهدة.

وحيث أن آدم ﷺ وزوجه أحاط بهما الحياء والخجل من نسيانهما وصية خالقهما فقد لبثت نفساهما محتجبة عن ذلك الشهود وضاقت نفساهما بهذا الحال ضيقاً شديداً وجعلا يلتجئان إلى الله، وذلك مما كنا رأيناه من قبل في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ﴾[1].

والآن وبعد أن بيّنا المراد من آية: ﴿. . .وَعَصَى آدَمُ رَبَّه فَغَوى﴾ نستطيع أن نأخذ منها العبرة التالية، هذه الآية تقول: إن مخالفة الوصية الإلَهية إنما تعود على الإنسان دوماً بالكرب والضيق وبخلاف ما يتوقعه، ولك أيها الإنسان فيما وقع لأبيك آدم من قبل عبرة باقية إلى الأبد، فقد أعطاك ﷺ درساً خالداً لا تنساه، فما تجرُّ لك مخالفة وصيّة خالقك سوى الندم والحسرة وما توقعك إلاَّ في عكس ما ترجوه.

ونعود الآن إلى تلك النقطة التي كنا بصددها فنقول:

وممّا يؤيد لنا أنَّ أكل آدم ﷺ وزوجه من الشجرة كان عن نسيان الوصية وسعياً وراء غاية نبيلة وهي الخلود في شهود الكمال الإلَهي ما جاء في الآية الكريمة التالية: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ اصْطفَى آدَمَ ونُوحاً وَآلَ إبْراهِيمَ وآلَ عِمْرانَ عَلَى العَالِمِينَ﴾[1].

---

[1] سورة الأعراف: الآية (٢٢).

[2] سورة طه: الآية (١٢٢).

[1] سورة آل عمران: الآية (٣٣).

فالله تعالى لا يمكن أن يجتبي إليه عاصياً آثر الأشياء الدنيئة على رضاء خالقه وإنما يكون الاجتباء والاصطفاء لإنسان كريم الصفة عالي المطلب آثر الكمال وشُغف به.

ولكن كيف وقع هذا الاجتباء والإدناء بعد الأكل من الشجرة؟.

أقول: لقد بيَّن لنا ذلك تعالى بقوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ. . ﴾.

فالله تعالى بعلمه بما في نفس آدم ﷺ من النية العالية من الأكل من الشجرة ناداه أن: يا آدم قد علمنا نيَّتك من عملك، فما كان أكلك من الشجرة إلاَّ حبّاً بي، لقد أنساك حبُّك العظيم لي وصيتي فلا تخجل ولا تغض حياءً مني، فلك من نيَّتك العالية ما يجعلك تعود إلي في الحال. وما أن سمع آدم ﷺ ذلك من ربِّه، وما أن نظر إلى نيَّته العالية حتى عاد متسارعاً إلى ربِّه مقبلاً عليه، فتاب عليه ربه، أي فعاد عليه في الحال بتجلِّيه، ﴿. . إِنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾[1]. فهو تعالى التواب إذ يسوق للإنسان دوماً ما يجعله يؤوب ويعود لخالقه ليتفضّل عليه بنعمته ويغمره ببرّه ورحمته.

---

[1] سورة البقرة: الآية (٣٧).

موجز قصة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام

من هو سيدنا آدم ﷺ؟.

سيدنا آدم هو ذلك المخلوق الكريم الذي بدأ الله تعالى به البشر جميعاً فأسكنه وزوجه الأرض وجعله الأب الأول للبشر كافة فكان الناس كلهم أبناء هذا المخلوق الكريم، وهم في الحقيقة إخوة مهما تناءت بهم الديار واختلفت عليهم المواطن والأقطار.

سيدنا آدم ﷺ هو ذلك الإنسان العظيم الذي فاق بحبِّه لخالقه الملائكة الكرام فكان بما ظهر منه من صدق مع الله وحبّ لله ومعرفة لكمال الله أهلاً لأن يسجد له الملائكة كلّهم أجمعون فيكون سراجاً منيراً لنفوسهم وإماماً لهم في إقبالهم على خالقهم.

سيدنا آدم ﷺ هو ذلك الرسول الذي اختاره الله تعالى بما علم فيه من صدق المحبة وشغف بالكمال لأن يقف من ذريته موقف المعلِّم الأول يُريهم قابلية الإنسان للتفوق والسمو على سائر المخلوقات ويضرب لهم بمحبته لربه المثل العليا التي تجعل من الإنسان إن هو اقتفى أثرها مخلوقاً كريماً يسمو بكماله الإنساني وحبِّه لخالقه على المخلوقات فيكون أرفعها مكانة وأعلاها عند الله درجة ومنزلةً. ولكن تاه عن المراد الإلٰهي من قصة هذا الرسول الكريم كثير من الناس ولم يروا ما أشار إليه القرآن في الآيات الكريمة من المعاني السامية فتأوَّلوها بخلاف ما أُنزلت من أجله وبخلاف ما أراد الله. وذلك ممَّا جعلنا نتعرَّض لهذه القصة فنشير إلى النقط الهامة، فإذا استطاع الإنسان

أن يدرك كمال هذا الرسول فعندئذٍ تتبيَّن جميع النقاط ويدرك المراد الإلَهي من سائر الآيات.

سيدنا آدم ﷺ خليفة الله في الأرض:

أخبر الله ملائكته قبل أن يخلق آدم ﷺ ويخرجه لهذه الدنيا أنه جاعل في الأرض خليفة، ومقام الخلافة إنَّما هو مقام عظيم يقتضي أن يكون الخليفة قائماً بأعباء أمور ثلاثة:

- أن يكون نائباً عن الله تعالى في تبليغ أوامره ورسالاته لخلقه.
- أن يكون حاكماً يسهر على تطبيق تلك الأوامر وإحقاق الحق بين رعيته.
- أن يكون مهبطاً للتجليات الإلَهية، فكل من ارتبطت نفسه به كان له سراجاً منيراً يستطيع بصحبته أن يتوصل إلى رؤية أسماء الله الحُسنى ومشاهدة كماله.

وبما أن مقام الخلافة يعود على صاحبه بالقرب زلفى من خالقه لذلك تمنَّى الملائكة أن يكون لهم شرف هذا المقام العظيم طمعاً بما يعود على صاحبه من الخير فقالوا في أنفسهم وقد كانوا رأوا ما فعله إبليس من الفساد في الأرض: ﴿. .أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ. .﴾ وما أن خطر لهم ذلك الخاطر حتى وقع في نفوسهم الرد على قولهم فسمعوا قوله تعالى: ﴿. .إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي إني أعلم من سبق آدم في حبِّه إياي وأهليته لهذا المقام مالا تعلمونه أنتم فيه.

وخلق الله تعالى سيدنا آدم ﷺ فكان له من حبِّه لربِّه وإقباله العالي عليه ما جعله يُشاهد جميع أسماء الله تعالى الحُسنى الدّالة على الكمال الإلَهي مشاهدة تفوَّق بها على

الملائكة جميعاً وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . .﴾[1].

وقد أراد تعالى أن يُري الملائكة شرف آدم ﷺ في سبقه إيَّاهم في تلك المعرفة فطلب منهم بواسطة آدم ﷺ أن يتكلَّموا عن تلك الأسماء الحُسنى ويبيِّنوا ما شاهدوه منها. وإلى ذلك تشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أنَّكم أهل لمقام الخلافة، وتكلَّم الملائكة وبيَّنوا عن تلك الأسماء بما يتناسب مع حبِّهم وإقبالهم، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾.

سجود الملائكة لسيدنا آدم ﷺ:

وبعد أن بيَّن الملائكة ما بيَّنوه، أمر تعالى سيدنا آدم ﷺ أن ينبِّئهم بما يعرفه عن تلك الأسماء الحُسنى بما يظهر به سبقه وتفوُّقه، وذلك ما تُشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿. . .يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ . .﴾ أي: عرِّفهم عمَّا عرفوه هم عن أسمائي.

عندئذٍ تكلَّم سيدنا آدم ﷺ عن تلك الأسماء الحُسنى فبيَّن بياناً فاق به الملائكة جميعاً، وذلك ممّا جعلهم يقرّون له بالفضل ويعترفون بأنه إنما سبقهم في حبِّه لربِّه ومعرفته بخالقه سبقاً لا يدانونه فيه فأذعنوا إليه بنفوسهم خاضعين، وأقبلوا بمعيَّته على

[1] سورة البقرة: الآية (٣١).

خالقهم، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ..﴾[1].

لقد سجد الملائكة كلهم أجمعون لهذا الرسول الكريم، وما سجودهم إلاَّ ذلك الخضوع النفسي، وهنالك كان هذا الرسول الكريم إماماً لهم في إقبالهم على خالقهم وسراجاً منيراً لنفوسهم.

المراد الإلّهي من ذلك الأمر بالسجود وحقيقة الشفاعة:

وقد أراد الله تعالى أن يرشدنا بهذه القصة إلى شأن الارتباط بالنفوس العالية ليكون لنا من سجود الملائكة الكرام لآدم ﷺ مثل أعلى نحذو حذوه وقدوة نقتدي بها. فهؤلاء الملائكة الكرام بما اشتقته نفوسهم من الكمال بوجهتها إلى الله استطاعوا أن يقدِّروا في آدم ﷺ سبقه إياهم في المعرفة بالله وتفوّقه عليهم في محبة الله وهنالك لما أُمروا بالسجود له سجدوا جميعاً معترفين بفضله مقبلين على الله بمعيَّته.

وكذلك المؤمن بما اشتقته نفسه من الكمال بوجهتها إلى الله إذا هو نظر إلى أهل الكمال قدَّرهم ووقَّرهم وخضع بنفسه لمقامهم العالي الرفيع.

وبهذا الخضوع والتقدير تقبل نفس هذا المؤمن على نفوس أهل الكمال وترتبط بها فينعكس في نفسه الصافية التي هي في صفائها أشبه بالمرآة ذلك النور الإلّهي المتوارد على مرآة نفوسهم انعكاساً وبمقدار متناسب مع تقديره إياهم وارتباطه بهم، وحينئذٍ يكونون بهذا النور سراجاً منيراً لنفسه ويكشف له هذا النور طرفاً من الكمال الإلّهي.

---

[1] سورة البقرة: الآية (٣٤).

وبما أنَّ النفوس مفطورة على حبِّ الجمال والكمال لذلك تجد هذا المؤمن يعشق الكمال الإلَهي وتشغف نفسه بحُب الله تعالى ويكون هذا التقدير والتوقير وإن شئت فقل هذا الاستشفاع والارتباط بتلك النفوس العالية الكريمة سبباً ووسيلة في الوصول إلى هذه الاستنارة والرؤية للكمال الإلَهي وبالتالي إلى هذا العِشق ولعمري تلك الشفاعة هي الشفاعة الحقيقية شفاعة ارتباط نفس بنفس في طريق إقبالها على الله ليسمو القوي بالضعيف وينهض الأعلى بالأدنى ويعرج به في معارج القُدس ومشاهدة الكمال.. كما عرج رسول الله ﷺ بنفوس أصحابه الكرام.

الشفاعة طريق التقوى ووسيلتها:

إذا ما توصَّلت النفس المؤمنة بصحبة تلك النفس العالية الكريمة وارتباطها بها إلى شهود الكمال الإلَهي وارتقت إلى منزلة الحب والعشق لصاحب الكمال والجمال كان حبها وعشقها سبباً في إقبالها على ربها وبهذا الإقبال على الله تشتق هذه النفس قبساً من نور الله تعالى يُضيء لها طريقها فإذا هي مستنيرة مبصرة قد خرجت من الظلمة إلى النور ترى بهذا النور الإلَهي الحق من الباطل والضار من النافع. ترى الخير خيراً فتحبه وتميل إليه وتشكر خالقها على أن أرشدها إليه فتزداد إقبالاً عليه تعالى وترتقي في منازل المعرفة والعلم درجة فدرجة، كما ترى الشرَّ شرّاً فتأنف منه وتعافه وتشكر خالقها على أن حذَّرها منه، وتلك هي حقيقة التقوى فهي اتقاء بذلك النور الإلَهي واستنارة به من الوقوع في المهالك، وإلى هذه المنزلة السامية حضَّ تعالى في كتابه

الكريم عباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾[1].

موقف الشيطان من سيدنا آدم ﷺ:

عرفنا موقف الملائكة الكرام من سيدنا آدم ﷺ، أمَّا إبليس الذي كان من قبل كافراً بفضل الله ونعمته كما أشار تعالى إلى ذلك في كتابه الكريم ذلك المخلوق الذي لم يكن له إقبال على ربّه فلم تكتسب نفسه شيئاً من الكمال، لمَّا أُمر بالسجود لآدم ﷺ أبى واستكبر، وما إباؤه واستكباره إلاَّ لكفره السابق وإعراضه، فإنه لا يعرف الفضل إلاَّ ذووه، ولا يعرف قدر رسل الله إلاَّ المقرَّبون إلى الله، ولا يُقدِّر أهل الكمال إلا من تحلَّت نفسه بحلية الإيمان واصطبغت من خالقها بصبغة الكمال.

سيدنا آدم ﷺ في الجنة:

وقد أمر تعالى سيدنا آدم ﷺ أن يسكن وزوجه الجنة فيأكلا منها رغداً، وفي الجنة وما فيها من نعيم، وأسمى نعيم فيها ذلك الإقبال على الله والشهود لجمال الخالق الأسنى وكماله الذي لا يتناهى، وقد ملك هذا الشهود على سيدنا آدم ﷺ مشاعره فإذا هو سابح مستغرق فيه وقد أمره ربُّه أن لا يقرب الشجرة وحذَّره من عداوة الشيطان ومكره وما يكنّه نحوه من الضغينة، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فقلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدوٌّ لَكَ وَلِزَوجكَ فَلا يُخرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى ۞ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾[1].

---

[1] سورة الحديد: الآية (٢٨).

[1] سورة طه: الآية (١١٧-١١٩).

سيدنا آدم ﷺ والأكل من الشجرة:

ظلَّ سيدنا آدم عليه السلام في ذلك الحال النفسي مستغرقاً في شهود الكمال الإلّهي يأكل من الثمرات رغداً دون أن يقربها ويجعل مادتها في فمه، بل كانت تسري أشعة نفسه إليها فتتذوقها ذوقاً متواصلاً كما تمتد أشعة الشمس إلى أعماق المياه فتخالطها وتسري فيها دون أن يدنو جرمها منها وقد رأى الشيطان من سيدنا آدم حبّه العالي لربه وإقباله المتواصل عليه فأحزنه ذلك وظنَّ أنه يستطيع أن يحوِّل هذا الرسول الكريم عن ذلك الحال من الشهود والإقبال ولذلك حاول أن يوقعه في مخالفة وصية الله فلعلَّه إذا أكل من الشجرة وآنس من نفسه مخالفة وصية خالقه يخجل منه ويتباعد عنه، ولذلك جاء سيدنا آدم ﷺ فقال: ﴿ . .يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾[1] أي: أتريد أن أدلَّك على الشجرة التي إذا أكلت منها خلدت نفسك في ذلك الشهود لكمال خالقك وملكت هذا الحال من الإقبال عليه فلم تنقطع عنه أبداً؟

وأقسم الشيطان بالله لسيدنا آدم وزوجه بأنهما إذا أكلا من الشجرة وجعلا مادتها في جوفهما خلدا في ذلك الشهود الجميل والإقبال الرفيع.

هنالك غلب على سيدنا آدم ﷺ حبُّه لخالقه وأكل من الشجرة وأكلت زوجه منها وأنساه حبُّ الله وصية الله. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾: أي نسي وصيتنا نسياناً ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[2]: أي لم نجد له عزماً على مخالفتنا.

---

[1] سورة طه: الآية (١٢٠).

[2] سورة طه: الآية (١١٥).

وبهذا الأكل من الشجرة ظهر للملائكة الكرام حبُّ سيدنا آدم ﷺ العالي لربِّه وسبقه إيَّاهم في هذا المضمار، وما مثل سيدنا آدم ﷺ مع الملائكة في سبقه إيَّاهم في محبة ربِّه إلاَّ كمثل والدة أوصت ولديها الصغيرين ألاَّ يركضا في سيرهما، ومن بعد غياب طويل عادت الأم إليهما فما أن رآها أحدهما حتى غلب حبُّه إيَّاها عليه فأنساه وصيتها وهرع إليها مسرعاً فوقع ساقطاً على الأرض، وأمَّا الآخر فسار إليها سيره المعتاد حسب وصيتها، تُرى أي ولديها أكثر حبّاً لها؟. أليس الذي أنساه حبّه إياها وصيتها هو الأكثر تعلقاً بها والأعظم حبّاً؟

وإذاً فما هذا النهي عن الأكل من الشجرة إلاَّ امتحان واختبار أظهر به تعالى وهو العليم بما انطوت عليه كل نفس، شرف سيدنا آدم عليه السلام وحبَّه لربِّه وبيَّن بذلك للملائكة الكرام أن سبْق آدم ﷺ وتفوُّقه عليهم في معرفته بأسماء الله ناشىء عن تفوُّقه عليهم في محبة الله وما هذه القصة إلاَّ كدرس بليغ يرينا به الله تعالى مقام هذا الرسول الكريم وسبب اصطفائه إياه كما يحذرنا به من عداوة الشيطان ومكره، وهو يعرِّفنا أنَّ من كان أكثر لربِّه حبّاً كان أكثر به معرفةً وأكثر علماً: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾[1].

نتائج الأكل من الشجرة:

كان سيدنا آدم عليه السلام قبل الأكل من الشجرة في حال نفسي مغاير لهذا الحال الذي نحن عليه الآن لقد كانت نفسه ثوباً ساتراً لجسده تُحيط به من كل ناحية كما يُحيط لهب الشمعة بالفتيل فإذا كان الجسد بمثابة الفتيل فالنفس بمثابة الضياء

[1] سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

والشعلة، وهي والحالة هذه كلها عيون وكلها سمع وكلها ألسنة وذوق، ذلك كان حال سيدنا آدم ﷺ من قبل وذلك هو حال أهل الجنة في الجنة.

وما أن أكل ﷺ من الشجرة ووضع مادتها في فمه وأكلت معه زوجه حتى تبدَّل بهما الحال وهبطا منه إلى حال آخر فدخلت النفس إلى قفص الجسد وصارت ضمنه فعن طريقه أصبحت تسمع وترى وبواسطته غدت تتذوق وتشم وتتكلم. وقد أصبحت في هذا الحال الجديد مضطرة إلى السعي والعمل تأميناً لحاجات الجسد من مسكن وملبس ومطعم ومشرب إلى غير ذلك مما يتطلب جهداً متواصلاً وسعياً لا يفتر. ذلك هو الحال الجديد الذي صار إليه سيدنا آدم ﷺ وزوجه وصار إليه بنوه من بعده وهو كما ترى مختلف كل الاختلاف عن حاله الأول الذي أشارت إليه الآية الكريمة التي مرّت بنا من قبل وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[1].

ولكن أي الحالين هو أجدى للإنسان فائدة وأكثر له نفعاً؟.

أثر العمل في تسامي النفس وقُربها من خالقها:

لا ريب أنَّ الحال الثاني هو أنفع من الأول بكثير، ففيه دخل سيدنا آدم ﷺ وزوجه ودخلت ذريتهما من بعدهما في معترك الحياة، حيث العمل وحيث الإيثار والتضحية اللذان يتمايز بهما الناس على بعضهم بعضاً. ومن قواعد النفس الثابتة أنها لا تُقبل بوجهها على أحد إلاَّ إذا كانت لها أعمال عالية تجعلها واثقةً من رضاء من تُريد أن تقبل عليه، وكلَّما كانت ثقتها أكبر وجدت أنَّها أقرب إليه زلفى وأحظى عنده منزلةً.

---

[1] سورة طه: الآية (١١٨-١١٩).

وهذه الناحية النفسية وأعني بها الثقة التي يولِّدها العمل الصالح في النفس فيجعلها تسير قُدماً وتعرج متسامية إلى خالقها، أقول: هذه الثقة التي هي أساس القرب وسر السعادة هي التي جعلت من هذه الدار الدنيا دار العمل ممراً وطريقاً إلى الدار الآخرة، حيث الجنات والنهر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر. وإذاً فالعمل وسيلة القُرب من الله وسبيل التمتع بذلك الشهود والنعيم الأبدي في الجنة فكلَّما كان الإنسان أحسن عملاً كان أوفر بالتمتع بذلك الجمال والكمال الإلَهي حظّاً، وإنه لن يندم الإنسان ساعة موته على شيءٍ إلاَّ على تفريطه وتقصيره في العمل الصالح وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ.. ﴾[1].

﴿وأَنفِقُوا مِنْ مَا رزَقْنَاكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

وهكذا فهبوط سيدنا آدم إلى هذا الحال وهبوط ذرِّيته من بعده إن هو إلاَّ وسيلة السمو المتزايد والرفعة التي لا حدَّ لها، والله تعالى منذ أن خلق آدم ﷺ إنَّما خلقه ليُسكنه الأرض حيث العمل الموصل إلى التمتع بأكبر حد من عطاء الله وفضله، غير أنه تعالى إنَّما جعل ذلك السبيل الذي سلَّكه به محكاً كشف به تعالى معدن هذا الرسول الكريم وأظهر به شرفه العظيم وجعل لنا من ذلك درساً وعبرة ﴿ ..وما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾.

(1) سورة المؤمنون: الآية (٩٩-١٠٠).
(2) سورة المنافقون: الآية (١٠).

قصة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام

تطاول العهد على بني آدم من بعده فضلُّوا سبيل الحق وأعرضوا عن الله فأرسل الله تعالى لهم سيدنا نوحاً ﷺ ينذرهم عواقب عملهم ويذكِّرهم وكانوا قد اتخذوا أصناماً آلهة يعبدونها من دون الله وأشهر هذه الأصنام وأعظمها عندهم وَدّ وسواع ويغوث ويعوق ونسراً. وهم يزعمون أن ودّاً ينشيء علائق المودة بين الناس وأن سواعاً هو الساعي في خيرهم وسعادتهم، وأنَّ يغوث يغوثهم في الشدائد وأن يعوق يعوق عنهم الشرور والمصائب. أمَّا نسراً فهو أكبر هذه الآلهة ونسرها. لقد زعموا ذلك وما عرفوا أن الخالق الذي خلق الكون كله وأن الرب الذي يمد بالحياة كل موجود من موجوداتهم بلا انقطاع هو وحده الإلَه المسيّر، وهو وحده المتصرِّف بشؤون الكون وهو وحده الذي يغوث الإنسان إذا أحاطت به المكاره ونزلت به الشدائد ويعوق عنهم الشرور إذا صلحت أعمالهم، فهو يسوق لكل إنسان ما يتوافق مع عمله، لقد انقطع هؤلاء عن ربِّهم وارتبطوا بأصنامهم، حسبوا أن الأمور تجري في هذا الكون جزافاً وبدون حساب. فلا علاقة لما يصيبهم من الشدائد والمكاره بأعمالهم. ولذلك جعلوا يرجون هذه الأصنام في جلب الخير لهم وكشف الضرّ عنهم، ولو عقلوا لعرفوا أن الخالق هو وحده الفعَّال والمتصرف بشؤون الكون كله، فلا يملك أحد لأحد ضراً ولا نفعاً ولا يستطيع أحد أن يجلب لأحد خيراً أو يدفع عنه شراً فإذا مسَّ تعالى أحداً بضرٍ فلا كاشف له إلاَّ هو، وإن أراد تعالى أحداً من عباده بخير فلا راد لفضله. إلاَّ أنَّ بُعد هؤلاء عن الله وعدم تحققهم بالإيمان أوقعهم فيما وقعوا به من الضلال فضلُّوا وأضلُّوا كثيراً. وما كان كفرهم ليزيدهم إلاَّ خسارا.

منشأ عبادة الأصنام:

إن عبادة الأصنام لم تنشأ عند الأقوام السابقة إلاَّ لسبب الغلو في الدين والخروج عن الحد الذي رسمه الله تعالى للنّاس. فالله تعالى كما أمر الملائكة بالسجود لسيدنا آدم ﷺ والارتباط به كذلك أمر بني آدم بالارتباط برسلهم والإقبال بمعيَّتهم على الله ليكون هؤلاء الرسل الكرام سراجاً منيراً لنفوس المرتبطين بهم وضياءً لقلوبهم، وبواسطتهم يتوصَّلون إلى معرفة الله وبالنور المتوارد على نفوسهم من الله تعالى يستطيع المقبلون بمعيَّتهم على الله أن يروا الكمال الإلّهي، وهذا ما يوضِّح لنا قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلّونَ عَلَى النبي يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1].

فما الصلاة على النبي في حقيقتها إلاَّ الصِلة والارتباط بتلك النفس الكريمة الطاهرة والإقبال بمعيتها على الله لتكون سراجاً منيراً للنفس المرتبطة بها وضياءً لقلب المصلي بمعيتها، على هذه النقطة الهامة استند بنو آدم من بعده في إقبالهم على ربِّهم وقد كان منهم الصالحون المقبلون الذين تأهلت نفوسهم لأن تكون سراجاً منيراً لمن عاصرهم، غير أنه لـمَّا مات هؤلاء الصالحون جاء الشيطان فوسوس إلى الناس من بعدهم أن يجعلوا لهم تماثيل تذكرهم بهم وتذكي المحبة في قلب من ينظر إليهم.

وقد تقادم الزمان على هذه التماثيل وقضى عليها حين من الدهر نسي معه الناس أولئك الرجال الصالحين والإقبال بمعيتهم على رب العالمين، وقصروا وجهتهم على تلك الأصنام وعكفوا عليها. فظنوا أنَّ لها حولاً وقوة وبذلك انقطعت نفوسهم عن الله ووقعوا فيما وقعوا به من الشرك والبعد عن الله.

---

[1] سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

ومن هنا يتبيَّن لنا أن الارتباط بالرسل الكرام وبالصالحين من بعدهم حق وفرض لازم مادام ذلك وسيلة للإقبال على الله.

أمَّا إذا قصر الإنسان وجهته على الرسول أو الولي أو المرشد الصالح واتجه إليه وحده دون أن يتَّجه بمعيَّته إلى الله فذلك هو الشرك بعينه وهو أشبه بعبادة الأصنام.

ونستطيع الآن أن نقف في موقف معتدل بين أولئك الذين غلوا في دينهم فقصروا وجهتهم على المخلوق دون الخالق فوقعوا في الشرك بتحولهم عن الله وبين أولئك الذين أنكروا الارتباط بالصالحين وأنكروا الإقبال على الله بمعية الرسول الكريم. فليس الأولون على حق بشركهم وتحولهم عن الله، ولا الآخرون على حق بإنكارهم الوسيلة وانقطاعهم عن رسول الله ﷺ.

والوسط الحق هو أن يقبل المؤمن على الله وحده، بمعيَّة وصحبة المقرَّبين إلى الله من الأحياء وهنالك يرى كمال الله وعدله، ويشهد أن الكون كلَّه مسيَّر بأمره تعالى وحده ويعلم حق العلم أنَّ لا إلٓه إلاَّ الله.

لا يكون الارتباط إلاَّ بالأحياء:

إنَّ وظيفة المرشد الكامل تتضمن عملين اثنين:

- فهو يدلُّك أولاً بمقاله على الله ويعرّفك بما جاء به رسول الله من الدلالة على الله.
- ثم هو إلى جانب ذلك يصل بك إذا أنت صدقت معه وارتبطت به نفسياً إلى محبة رسول الله ﷺ باب الخلق جميعاً إلى الله فبحبك الصادق لهذا المرشد الكامل ينطبع في نفسك ما هو مطبوع في نفسه من الحب العالي لرسول الله. فلا تلبث أن ترى نفسك مرتبطة بهذا الرسول الكريم ملازمةً له لا تنفك عنه،

فإذا وجدك قد وصلت إلى رسول الله قال لك: إلزم هذا الباب فقد انتهت مهمتي معك إذ بلّغتك من جعله الله تعالى باباً للعالمين، وأمر بالارتباط به أي الصلاة عليه كافة المؤمنين.

وما مثل المرشد في هذا إلاَّ كمثل القارب يحمل الذين يريدون السفر فينقلهم من الشاطىء إلى السفينة العظيمة، فمهمة القارب تنحصر في النقل من الشاطىء إلى السفينة لا تعدوا ذلك، أمَّا السفينة فتنتقل إلى لجج البحار بحار المعرفة والمشاهدة للكمال الإلّهي، فالسفينة واحدة والقوارب التي تنقل إليها عديدة. فإذا مات هذا المرشد فقد انتهت وظيفته وانتقلت إلى آخر حي من بعده وإلى ذلك الارتباط برسول الله تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ ومَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

فقد أمر تعالى المؤمنين جميعاً بالاعتصام والارتباط بهذا الرسول الكريم وعدم التفرّق عنه وثبت لك هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَاعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . .﴾ فما الحبل إلاَّ رسول الله ﷺ.

أمَّا السير بدلالة المرشدين من بعد الرسول ﷺ فتُشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الخَيْر وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهونَ عَنِ المُنكَرِ وأولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[1].

فهؤلاء من بعد الرسول يدعونك إلى سلوك سبيل الحق. فإذا أنت سرت بدلالتهم المأخوذة عن رسول الله انبعثت في نفسك الثقة برضاء الله عنك، وعندها تقبل على

---

[1] سورة آل عمران: الآية (١٠٣-١٠٤).

الله تعالى وبإقبالك عليه تعالى ينطبع الكمال في نفسك، فتُحب أهل الكمال، تُحب دليلك ومرشدك، ومنه تنتقل إلى حبِّ رسول الله كما ذكرنا من قبل.

إلى أي شيءٍ دعا سيدنا نوح قومه:

إنَّ أول ما بدأ به سيدنا نوح ﷺ قومه أن دعاهم إلى عبادة الله وحده والدعوة إلى عبادة الله وحده هي روح الأديان السماوية كافّة وجوهر دعوة الرسل عامة وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿لَقدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَومِهِ فَقَالَ يَا قَومِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ إني أَخافُ عَلَيكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

﴿وَإلى عَادٍ أَخاهُم هُودا قَالَ يَا قومِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِن إلَهٍ غَيْرُهُ﴾[2].

﴿وَإلَى ثَمودَ أَخَاهمْ صَالِحاً قَالَ يَا قومِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِن إلَهٍ غَيْرُهُ. . ﴾[3].

﴿وَإلى مَدْيَنَ أَخاهُم شُعيباً قَالَ يَا قومِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ. . ﴾[4].

فما من رسول إلاَّ وأوحى الله إليه أن يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى وحده وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إليهِ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنا فَاعْبُدُونِ﴾[5].

والمراد بعبادة الله تعالى طاعته أي الائتمار بأوامره تعالى وعدم مشاركة أحد معه في طاعته.

تلك هي دعوة سيدنا نوح عليه السلام وتلك هي دعوة عامَّة الرسل، وبما أن الدعوة إلى عبادة الله تقتضي التعريف به تعالى لذلك اتبع كلمة ﴿اعبُدوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيرُهُ﴾، فبيَّن لهم أنَّ المستحق للعبادة هو الإلَه وليس معه إلَه غيره. والإلَه: هو المسيِّر

[1] سورة الأعراف: الآية (٥٩).
[2] سورة الأعراف: الآية (٦٥).
[3] سورة الأعراف: الآية (٧٣).
[4] سورة الأعراف: الآية (٨٥).
[5] سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

الذي بيده تصريف أمور الكون وتسيير ما فيه من المخلوقات صغيرة كانت أو كبيرة عظيمة أو حقيرة، فالشمس والقمر والأرض والكواكب والرياح والسحب والأمطار والصواعق والبروق والرعود والإنسان والحيوان، لا بل كل مخلوق من المخلوقات يسير بأمر هذا المربي فهو تعالى وحده المتصرف بذلك كله والقائم بتسييره. ثمَّ إنَّ سيدنا نوحاً ﷺ بعد أن عرَّف قومه بلزوم طاعتهم لله الذي لا إلَه إلاَّ هو أراد أن يلفت نظرهم إلى ما يقع تحت أعينهم من الآيات الدالة على قدرة الله وعظمته وحكمته في تدبير شؤون خلقه، فلعلَّهم إذا فكَّروا في خلق السموات والأرض وما فيها من الآيات عظَّموا خالقهم وتذكَّروه فخشعت نفوسهم له واستسلمت إليه، وإلى تلك الآيات التي لفت إليها سيدنا نوح نظر قومه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم لا تَرْجُونَ لله وَقَاراً ۞ وَقَد خَلَقَكُم أَطوَاراً ۞ أَلَم تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوات طِباقاً ۞ وَجَعَلَ القَمَرَ فيهنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ۞ واللهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرض نباتاً ۞ ثُمَّ يُعيدُكُمْ فيها وَيُخْرِجُكُم إِخْراجاً ۞ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ بِساطاً ۞ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾[1].

وأنت ترى من خلال هذه الآيات أن الإيمان الذي لا يُبنى على تفكير وتأمل وأن الإيمان الذي لا يبعث في نفس صاحبه توقير الخالق وتعظيمه لا يجدي صاحبه ولا يغني عنه شيئاً.

وأنه لا بدَّ للإنسان حتى يستقيم على أمر خالقه ويعبده حق العبادة من أن يفكِّر التفكير الدقيق وينظر ويتأمل في الكون نظراً وتأملاً منبعثاً عن صدق في طلب معرفة الخالق والوصول إلى الحق.

---

[1] سورة نوح: الآية (١٣-٢٠).

فإذا صدقت النفس هذا الصدق ثمَّ لجأت إلى التفكير في الكون فلا بدَّ من أن يقودها تفكيرها إلى تعظيم هذا الكون وبالتالي إلى تعظيم هذا الخالق وتوقيره وعندئذٍ تخشع له وتخضع مستسلمةً إليه منقادة لطاعته وتعبده حق العبادة وتأتمر بما جاءها به الرسول فلا تجرؤ أن تُخالفه في شيء، ولا أن تعصيه في شيء.

نعم إنَّها تخضع لخالقها وتستسلم ولا ريب أن خضوعها هذا واستسلامها يجعلها تثق من رضائه تعالى عنها فتقبل عليه بوجهها، وإلى هذه النقطة الهامّة يُشير الدعاء المأثور من قوله ﷺ: «**اللّهمَ إيَّاك نعبد ولكَ نُصلِّي ونسجد**» فإذا عبد الإنسان ربَّه وأطاعه حقَّ الطاعة، استطاع أن يُصلِّي، أي أن يقبل على الله تعالى وتحصل له الصلة النفسية به، ولا ريب أنَّ هذه الصِلة والوجهة الصادقة تطهر النفس من أدران الشهوات الخبيثة فيمسح النور الإلّهي هذه النفس مما علق بها فإذا بها طاهرة نقية متحلّيةً بحلية الكمال والفضيلة، ولعمري تلك هي الطريقة الوحيدة لتهذيب النفوس البشرية والسمو بها إلى أسمى منازل الكمال والإنسانية، فمن الله تعالى تُستقى الأخلاق الكريمة، وإلى الله تعالى وحده يرجع الطالبون الوصول إلى الفضيلة، فهو سبحانه صاحب الأسماء الحُسنى ومورد الكمال الذي لا يتناهى. لقد طلب سيدنا نوح ﷺ من قومه أن يعبدوا الله وحده وفق أمر الله تعالى فقال: ﴿يَا قَومِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. . ﴾[1].

وتعريفاً لهم بربِّهم لفت نظرهم إلى مخلوقاته تعالى كما رأينا، غير أن النفس البشرية إذا هي لم تصدق في طلب الحقيقة، ولم تشأ هي بذاتها الوصول إليها ولم ترد أن تكون من أهلها فلا تنفع فيها تذكرة ولا تفيدها نصيحة وكذلك كان حال هؤلاء مع رسولهم

[1] سورة الأعراف: الآية (٦٥).

فما عبأوا بكل ما سمعوه وعجبوا أن جاءهم ذكرٌ من ربهم على رجل منهم فقالوا: ﴿ . .مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذينَ هُم أَرَاذِلُنا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[1].

وتُشير إلى هذا المعنى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الملؤُا الذين كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ما هذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأنزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعنَا بِهَذا في آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾[2].

وقد طال الجدل بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه وما كان منهم إلاَّ أن عاندوه وعارضوه: ﴿قَالَ المَلأُ مِن قومِهِ إنّا لَنَراكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[3].

وقالوا: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾[4].

ولـمَّا يئسوا من رجوعه عن دعوته هدَّدوه فقالوا: ﴿ . .لَئِنْ لَمْ تَنتهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ﴾[5].

وعلى الرغم من كل ما بيَّنه لهم من الآيات الدالَّة على الله تعالى قالوا له كما قالوا لسيدنا هود: ﴿يَا هُودُ ما جِئْتَنَا بِبَينةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنا عَن قَولِكَ وَمَا نَحنُ لَكَ بِمُؤمِنينَ، إن نَقولُ إلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ . .﴾[6]: أي: إنّك رجل تعرَّضت لك آلهتنا بسوء فسترت نفسك عن الحق وجعلتك تقول ما تقول. ﴿وَمَا نَحنُ لَكَ بِمؤْمِنينَ﴾ وهكذا النفوس جميعها إذا هي لم تفكِّر في الكون ولم تتعرف منه إلى خالقه فذلك حتماً حالها مع رسولها ومرشدها لا يزيدها نصحه إلاَّ إصراراً واستكباراً ولا تعبأ

---

[1] سورة هود: الآية (٢٧).
[2] سورة المؤمنون: الآية (٢٤).
[3] سورة الأعراف: الآية (٦٠).
[4] سورة المؤمنون: الآية (٢٥).
[5] سورة الشعراء: الآية (١١٦).
[6] سورة هود: الآية (٥٣-٥٤).

بذلك الناصح ولا تعرف له قيمة، وظلَّ سيدنا نوح ﷺ يدعو قومه إلى الله تعالى غير مبالٍ ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . .فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمسِينَ عَاماً . . ﴾[1] .

فما كان جوابهم بعد ذلك كله إلاَّ أن قالوا: ﴿ . .يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۞ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2] .

ولعلك تقول: ما المراد بكلمة ﴿إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾؟.

فأقول: إنَّ شفاء النفس من جرثوم شهواتها الخبيثة لا يكون إلاَّ بإقبالها على الله تعالى ووجهتها الخالصة إليه وهذه الوجهة والإقبال له إحدى طريقتين:

أولاً: فإما أن يعمد الإنسان كما رأينا من قبل عن طوع منه إلى التفكير في الكون والنظر فيه تفكيراً ونظراً مقروناً بالصدق في طلب الحقيقة وهنالك يصل به تفكيره إلى تعظيم هذه المخلوقات ثمّ ينتقل بالتالي إلى الإقرار بخالقه العظيم والخضوع لجلاله وكبير قدرته والخشية منه. وهذه الخشية تحمله على الاستقامة على أمره وطاعته، فإذا ما وصل الإنسان لهذه المرحلة، مرحلة الاستقامة تولدت في النفس الثقة بذاتها من أن الله تعالى راضٍ عنها وعندئذٍ تقبل عليه تعالى بكلِّيتها إقبالاً يشرق معه النور الإلَهي عليها ويسطع في جوانبها فيمحو كل خبث ودَرن ويستأصل جرثوم الخبث كما تمحو أشعة

---

[1] سورة العنكبوت: الآية (١٤).

[2] سورة هود: الآية (٣٢-٣٤).

الشمس الداخلة إلى الغرفة آثار العفن، أو كما تبيد بعض الأشعة المسلَّطة على الناحية المريضة من الجسم ما استكن فيها من الجرثوم وهذا مثال تقريبي.

ثانياً: ولكن ما العمل والحيلة إذا كانت النفس قد رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها، وأنَّى تستطيع هذه النفس الإقبال على الله وقد استحكمت فيها شهوتها وسيطرت عليها فوقفت سداً منيعاً وحجاباً ساتراً بينها وبين خالقها. لا ريب أن النفس في مثل هذا الحال لا تستطيع الإقبال ولا تتمكن منه ما لم تخرج هذه الشهوة منها. فإذا ما خرجت هذه الشهوة وخلت ساحة النفس بدأ دور المعالجة والمداواة وسلَّط الله تعالى على هذا الإنسان أنواع البلاء والمصائب وأنزل به من الهموم والكروب ما يجعله يتضرع إلى خالقه ويلتجىء إليه، ثم إن الله تعالى يكشف عن هذا الإنسان البائس الشدة، ويعيد إليه الطمأنينة، فلعله يذكر من بعد كشفِ الضر عنه فضل خالقه ويُقدِّر إحسانه إليه فيفكر التفكير الصحيح ويعرف ربه المعرفة اللائقة التي تقوده إلى الإقبال عليه، وهذه هي الطريق الثانية الموصلة للإقبال.

وهنا يتبيَّن لك فضل الله تعالى على الإنسان كما يتبيَّن معنى كلمة ﴿إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُم﴾.

فهو تعالى يزيِّن لهذه النفس المريضة عملها حتى يخرج منها شهوتها الخبيثة كما يُزيِّن الطبيب العلاج للمريض إذ يضع له فيه السكر والمواد العطرة.

ثم إن الله تعالى يعقب خروج الشهوة وخلو النفس منها بأنواع البلاء وإن شئت فقل بالمداواة التي تقود إلى الإقبال على الله والوجهة الصادقة استئصالاً لجرثوم الخبث من

النفس وتطهيراً لها من تلك النواة التي تسبب تولد الشهوات قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العَذابِ الأَدْنى دُونَ العَذابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ﴾[1].

والآن بعد أن عرفنا المراد من كلمة (**الإغواء**) والمراد الإلَهي من الشدة والبلاء نقول: الناس تجاه البلاء أحد رجلين:

١. رَجُل يتضرَّع إلى الله ساعة المصيبة، وهذا ممكن شفاء نفسه، فإن كشف الله عنه الشدّة والبلاء فقدَّر إحسان الله تعالى وفضله وسلك طريق الإقبال كان ذلك سبباً في شفاء نفسه وطهارتها من الخبث.

٢. ورَجُل لا يتضرَّع إلى ربِّه ولا يدعوه، وهذا متعذِّر شفاء نفسه ولذلك فهو أمام أحد حالين:

- إمَّا أن يكون حرمانه من شهواته سبباً في زيادة كفره وإعراضه ولذلك فإن الله تعالى يسوق له جميع ما يحبّه من الشهوات الدنيا ويعطيه كل رغائبه منها فإذا ما فرغت نفسه من كل شهوة وفرح بما أوتي جاءه الموت، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا إذ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ولكِن قَسَتْ قُلُوبُهُم وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيهِم أَبْوابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإذا هُم مُبْلِسُونَ﴾[2].
- وإمَّا أن يكون إعطاؤه رغائبه سبباً في زيادة طغيانه وأذاه، ولذلك حسماً لأذاه وحدّاً من طغيانه يجعل الله تعالى نصيبه الحرمان من شهواته وتخليصاً لنفسه مما هي متعلِّقةً به من الشهوات تستمر المصائب عليه، وما تزال تتزايد في الشدة حتى

---

(١) سورة السجدة: الآية (٢١).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٤٣-٤٤).

تزهد نفسه من شهواتها وتعافها، وإلى حال هذا الرجل تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

وأنت ترى من خلال هذا الشرح الذي بيَّناه أن الحكمة الإلّهية تُعامل كلاًّ بحسب حاله، فلا يحين أجل الإنسان إلاَّ وقد فرَّغ الله له نفسه من جميع شهواتها، أما أولئك الذين لم يؤمنوا فمع أنَّ نفوسهم فرغت من شهواتها لكن الجرثوم لا يزال كميناً فيها، فلو أنَّ الله تعالى مدَّ لهم في عمرهم زيادة عن أجلهم المحتوم لما أفادهم ذلك شيئاً، بل لتوالد ذلك الجرثوم وبعث فيهم الشهوة من جديد لذلك من رحمة الله تعالى بهم أن يتوفاهم عند حلول أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وإلى هذا المعنى تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿. .وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ. .﴾[2].

ولهذا السبب لـمَّا أخبر الله تعالى سيدنا نوحاً عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلاَّ من قد آمن، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ. .﴾[3]: طلب من الله تعالى أن يرحم قومه بالموت حدّاً من أذاهم وتخفيفاً عنهم.

وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[4].

وإذاً فما دعاء سيدنا نوح ﷺ على قومه قسوة منه، وليس دعاؤه عليهم خطيئة، إنَّما هو رحمة ورأفة بهم.

---

[1] سورة المؤمنون: الآية (٧٥).

[2] سورة الأنعام: الآية (٢٨).

[3] سورة هود: الآية (٣٦).

[4] سورة نوح: الآية (٢٦-٢٧).

وقد استجاب الله تعالى لسيدنا نوح ﷺ دعوته. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾[1].

وإن كلمة (**فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**) تُبيِّن لك أن دعاءه عليهم كان في موضعه وضمن الرحمة والعدل.

ولـمَّا حان موعد هلاكهم أمر الله تعالى رسوله أن يصنع السفينة وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[2].

وإن كلمة ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تبيِّن لك زيادة عطف هذا الرسول الكريم على قومه ورحمته بهم. وقد أمر الله تعالى رسوله أن يحمل في السفينة من كلٍ زوجين اثنين، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3].

والتنور: هو منبع الماء والمراد بكلمة (**وَفَارَ التَّنُّورُ**): أي تفجرت ينابيع الماء بشدة وفارت فوراناً قوياً. ولو أن كلمة (**من كُلٍّ**) الواردة في هذه الآية جاءت خالية من التنوين أي بصيغة احمل فيها من كُلِّ زوجين اثنين، لكانت كلمة (**كُلِ**) مضافة إلى زوجين، وللزم بسبب هذه الإضافة أن يحمل معه من كل ما خلق الله تعالى من زوجين على وجه الأرض وهذا مما لا فائدة منه. ولذلك جاءت كلمة (**من كلٍّ**) مُنوَّنة

---

[1] سورة الصافات: الآية (٧٥).
[2] سورة هود: الآية (٣٧).
[3] سورة هود: الآية (٤٠).

بالكسر، ويكون المراد بالآية بحسب ما هي واردة عليه بمعنى ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ﴾ مما تحتاجه لا من كل شيء والذي يتبادر للأذهان وذلك مما تقتضيه العدالة الإلَهية، أن سائر الحيوانات الأخرى التي كانت في تلك المنطقة التي أصابها الطوفان أوحى إليها الله في نفسها فشردت نافرة في الآفاق مبتعدة عن تلك المنطقة، لأن الطوفان لم يشمل عامة الأرض، وإنما أصاب تلك البقعة المحدودة التي عمَّرها الإنسان لأن الناس كانوا يومئذٍ أمة واحدة يسكنون في بقعة واحدة من الأرض أمَّا المناطق الأخرى فكانت خالية من الإنسان، وما أن ركب سيدنا نوح ﷺ السفينة وركب معه من آمن حتى انفتحت أبواب السماء بماء منهمر وتفجَّرت الأرض عيوناً، وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحنا أَبوابَ السَّماءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرضَ عُيوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾[1].

وانغمر وجه تلك المنطقة بالماء وتعالى الموج وازداد وجعلت السفينة تجري في موجٍ كالجبال. وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلا تَكُن مَعَ الكَافِرِينَ ۞ قَالَ سَآوِيْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَحِمَ وَحَالَ بَينَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ ۞ وَقِيلَ يَا أَرضُ ابلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِي وَقِيلَ بُعداً لِلقَومِ الظَّالِمِينَ ۞ وَنَادَى

[1] سورة القمر: الآية (١١-١٤).

نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي وإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وأَنتَ أَحْكَمُ الحَاكِمينَ ۞ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . ﴾[1].

والذي يتبيّن لنا من خلال هذه الآيات الكريمة أن الإنسان إذا ساء عمله فليس يدفع عنه العذاب أحد ولن يجيره من الله أحد، بل لا بدَّ للمعرض من أن يعود عليه عمله كائناً من كان، وذلك ما تقتضيه العدالة والرحمة الإلَهية، وقد ترك الله تعالى لنا من العبرة الباقية من هذه القصة لنعلم أنَّ الذي يُكذِّب بآيات الله ولا يفكِّر فيما خلق الله لا يستطيع أن يرى الحق ولا يمكن أن يهتدي إليه، وإنه لا بدَّ له من الهلاك فإذا ما نزل البلاء حفظ الله تعالى عِباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿ . .فَأَنجَيْنَاهُ وَالذينَ مَعَهُ فِي الفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُم كَانُوا قَوماً عَمِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنذَرِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾[3].

---

[1] سورة هود: الآية (٤٢-٤٦).

[2] سورة الأعراف: الآية (٦٤).

[3] سورة الصافات: الآية (٧٣-٧٤).

قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

في قصة سيدنا إبراهيم ﷺ مثل حي لكل إنسان ودرس خالد للبشر في كل زمان ومكان فالإنسان مهما تكن البيئة التي نشأ فيها والأسرة التي ربَّته بين أحضانها ومهما أحاطت به الضلالات والجهالات فباستطاعته أن يتوصَّل بذاته إلى طريق الحق والرشاد وأن يكتشف معالم الحقيقة فيخرج من الظلمة إلى النور ويشهد الخير من الشرِّ وإن خفي على غيره من الناس.

نعم يستطيع الإنسان بذاته وبذاته وحده أن يشق طريق الحقيقة ويكتشف معالمها لأن الله تعالى تفضَّل على الإنسان بجوهرةٍ ثمينة وكرَّمه بها فإن هو حاول الاستفادة منها والانتفاع بها توصَّل إلى كل خير وسما إلى مراتب الإنسان الكامل فكان من أعلى المخلوقات شأناً وأقربهم إلى الله جميعاً وممن ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ﴾[1].

وإن هو ألقى هذه الجوهرة جانباً واتخذها وراء ظهره حبط عمله وانحطت منزلته فصار أدنى وأشرّ مخلوق على وجه الأرض قال تعالى: ﴿إِنَّ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئكَ هُمْ شرُّ البَرِيَّةِ﴾[2].

إنَّ هذه الجوهرة التي أنعم الله تعالى بها على كل إنسان إنَّما هي الفكر وبالفكر يستطيع الإنسان مهما تكن لغته ومهما تكن بلاده وأمته ومهما تكن شيعته وملَّته أن يعرف خالقه المعرفة اللائقة فيهتدي إلى الحق ويشهد الحقيقة، ذلك أنه لا عبرة في الوصول إلى هذه المعرفة للُّغة واللسان ولا يحول دون الحصول عليها قطر ولا بيئة ولا مكان.

---

[1] سورة البينة: الآية (٧).
[2] سورة البينة: الآية (٦).

فهذا الكون المحيط بالناس جميعاً وما فيه من آيات بيِّنات إنما هو كتاب مفتوح يستطيع أن يقرأ فيه دلائل العظمة وأن يرى الآيات الدالة على الخالق كل إنسان أينما حلّ وحيثما ارتحل وفي أي جيل وعصر نشأ وفي أي أمة أو شعبٍ كان.

كيف توصَّل سيدنا إبراهيم ﷺ بفكره إلى معرفة ربِّه وكذلك الأنبياء من قبله ومن بعده؟.

نشأ سيدنا إبراهيم ﷺ في أمة تعبد الأصنام وكان قومه جميعاً حتى أبوه يتخذون أصناماً آلهةً فلم يجارِ الناس على سيرهم ولم يوافق أباه على ضلاله بل إنه جعل ينظر ويتأمَّل وصار يُفكِّر ويتعمَّق في التفكير فنظر أول ما نظر إلى نفسه وهداه تفكيره المتواصل إلى أنَّ نطفةً من منيٍ يمنى لا يمكن لها بذاتها أن تتحوَّل بعد حين وتصبح مخلوقاً كريماً وإنساناً سوياً ذا سمع وبصر ونطق وشم ووعي وتفكير وله ماله من قلب ورئتين ومعدة وكليتين وكبد وأمعاء إلى غير ذلك من الأجهزة والأعضاء التي يحار في دقة تركيبها وبعظمة صنعها كل ناظر ومتأمل.

نعم لقد أوحت إليه هذه الفكرة المتواصلة وهداه هذا التأمل إلى أنَّ له ربّاً عظيماً خلقه ورتَّبه وأحكم صنعه وركَّبه.

وراح سيدنا إبراهيم ﷺ يبحث عن خالقه ويُفكِّر ليلاً نهاراً جاهداً جادّاً في معرفة ربِّه. ونظر فيما يعكف عليه أبوه وقومه مفكِّراً متسائلاً أيمكن لصنم نحته إنسان بيده أن يكون خالقاً مربياً؟.

وهل يستطيع هذا الصنم الذي لا يقوى على أن يمسك ذاته بذاته أن يمسك السموات والأرض وأن يمد ما فيها بالحياة؟. وذلك ما لا يقبله فكر سليم ولا يقرّه عقل ولا منطق صحيح.

وهكذا استطاع سيدنا إبراهيم ﷺ بتفكيره أن يتحرَّر من عقيدة الوثنية التي درج عليها أبوه وقومه من قبل وأن يُخالف البيئة والمجتمع الذي نشأ فيه وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[1].

وإنَّه لخليق بكل إنسان ما دام قد أعطي من التفكير ما أعطيه أبوه وسائر الناس أن يفكِّر كما فكَّر سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأن يبحث بذاته عن الحقيقة فلا يكون كالحيوان الأعجم مسوقاً لغيره تتلاعب به الضلالات وتتقاذفه الأوهام.

وبعد أن قطع سيدنا إبراهيم ﷺ مرحلتين من مراحل التفكير في سبيل الوصول إلى الحقيقة. انتهت به الأولى أن له ربّاً عظيماً خلقه وأوجده. وانتهى في الثانية إلى إنكار أن يكون الصنم له ربّاً، انتقل إلى مرحلة ثالثة مرحلة البحث المتواصل والتفكير الذي لا ينقطع في طلب الحق واجتلاء الحقيقة، وقد وصف لنا تعالى هذه المرحلة في كتابه العزيز وصدَّرها بآية كريمة تبيِّن لنا فيها أنَّ الصدق في البحث عن الخالق وأن الشوق الملح والشغف في الوصول إلى الحقيقة سينتهي حتماً بهذا الإنسان المفكِّر وبكل امرىء صار مثله إلى شاطىء الحقيقة وسيوصله إلى بحر المعرفة قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي: وبهذا التفكير الذي شغل إبراهيم وبناءً على ما ظهر لنا منه من الصدق فإننا سنريه الحقيقة وسنبلِّغه مراده وكذلك نُري كل صادق مقتف أثره طالب مطلبه.

---

[1] سورة الأنعام: الآية (٧٤).

كيف قطع سيدنا إبراهيم ﷺ خطوات هذه المرحلة:

كان جالساً ذات ليلة يفكِّر على جاري عادته، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ الليلُ﴾، وستره بظلامه ﴿رَءَا كَوكَباً﴾: شاهد كوكباً منيراً يتألَّق في السماء فقال في نفسه متسائلاً. ترى هل هذا ربي الذي يمدُّني بالحياة؟.

فلمَّا أفل الكوكب وغاب قال لا أحب الآفلين.

فما دام هذا الكوكب قد أفل وغاب فلا يمكن أن يكون ربِّي الدائم عليّ فضله والمتتالي إمداده وخيره والذي يجب عليّ أن أحبَّه وتابع سيدنا إبراهيم تفكيره ﴿فَلَمَّا رَءَا القَمَرَ بَازِغاً﴾ مشرقاً بنوره على الكون عاودته الفكرة أيمكن أن يكون هذا القمر ربّه؟. وتساءل في نفسه ﴿قَالَ هَذا رَبِيّ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِني رَبّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالّينَ﴾.

والمراد بقوله ﴿مِنَ القَوْمِ الضَّالّينَ﴾: أي التائهين عن الحق، وأنت ترى أنه أدرك في هذه الخطوة أنَّ هدايته إنَّما هي بيد ربه فهو وحده الفعَّال وبنوره يستبين الحق لطالب الحق وبإذنه يهتدي المهتدون.

واستمر سيدنا إبراهيم ﷺ على تفكيره وواصل ليله بنهاره وكذلك شأن كل مشوق وحال كل صادق ﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمسَ بَازِغَةً﴾ وقد عمَّ الأرض نورها ﴿قَالَ هَذا رَبِي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾. أدرك أن ربَّه ليس بالكوكب ولا القمر ولا الشمس فما يمكن لهذه الأجرام الآفلة على عظمتها أن تكون ربّاً، إذ الرب لا يغيب ولا ينقطع نظره عن مخلوقاته ولو أنه انقطع طرفة عين لزالت المخلوقات كلّها وانمحت جميعها ولم يبق لها أثر.

نعم لقد أدرك في هذه الخطوة أنَّ هذه كلها مخلوقات وأنَّ المسيِّر لها واحد أكبر منها جميعاً أعظم من الكواكب والقمر والشمس وسائر ما يشهده الإنسان ويراه. إنه رب عظيم لا يمكن أن يدركه بصر أو تراه عين إنه رب دائمي الإمداد عظيم القدرة إنه رب السموات والأرض الذي فطرهن وما فيهن على هذا النظام البديع.

ولـمَّا استعظم ربَّه هذا الاستعظام اتجه بكل قلبه إليه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّموات وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. وهنالك وفي هذه اللحظة كشف الله له النقاب عن الحقيقة فشاهد عظمة هذا المسيّر لهذا الكون العظيم شهوداً نفسياً ورأى يد الإمداد بالتربية مبسوطة على كل مخلوق من مخلوقاته تعالى وعاين أنَّ قيام السموات والأرض وسير جميع ما فيها من مخلوقات إنَّما هو بيد الله سبحانه وتعالى وإليه وحده تؤول أمور هذا الكون كله فلا يتحرك شيء إلاَّ بإذنه ولا يقع واقع إلاَّ بأمره وحده وهو المسيّر فلا إله غيره ولا مسيِّر سواه.

نعم عقل سيدنا إبراهيم ﷺ ذلك كله وأدركه فما كان منه إلاَّ أن استسلم بكلِّيته إلى الله تعالى ففوَّض أمره وألقى مقاليد نفسه إليه وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمتُ لِربِّ العَالَمِينَ﴾[2].

[1] سورة الأنعام: الآية (٧٥-٧٩)

[2] سورة البقرة: الآية (١٣١).

العبرة من هذه القصة:

وأنت ترى من تفصيلات هذه القصة كيف أن الصدق لا بدَّ أن يصل بصاحبه إلى شاطىء الحقيقة والارتشاف من بحار المعرفة والسبح في شهود العظمة والكمال الإلّهي فما لهذا الإنسان الضال إذا وقف يوم القيامة على النار عذر يعتذر به أو حجَّة يقدِّمها بين يدي ربه. إذ باستطاعته ما دام الله قد وهبه فكراً وتمييزاً أن يُعمل فكره فيعرف خالقه ويهتدي إليه. على أن هذا الدرس الخالد الذي قام به سيدنا إبراهيم ﷺ يعلِّم به البشر أُصول البحث العلمي الصحيح ويضرب لهم مثلاً أعلى في كيفية كشف الحقيقة ما هو بالدرس الأول في هذا المضمار فما من نبي ولا رسول من قبله أو بعده إلاَّ وسلك هذا السبيل. ولذلك أعقب الله تعالى قصة سيدنا إبراهيم ﷺ الواردة في سورة الأنعام بذكر طائفة من الأنبياء والرسل الذين سبقوا أو أعقبوا هذا الرسول الكريم.

وبيَّن لنا أن أولئك الأنبياء والرسل وإن الذين اهتدوا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم إنَّما اهتدوا إلى ربِّهم عن هذا الطريق، وأنها هي الطريق الوحيدة لمن يريد معرفة ربّه قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ثم بيَّن لنا تعالى أنَّ كمال هؤلاء الرسل وسيرهم العالي إنما كان باتِّباعهم لدلالة الله وحده وعدم إشراكهم بعبادة ربهم أحداً سواه قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

ثم حثَّنا تعالى على اقتفاء آثار هؤلاء الرسل ومتابعتهم في هذه الطريق التي سلكوها، باهتدائهم إلى ربهم فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ. . ﴾[2].

---

[1] سورة الأنعام: الآية (٨٨).

[2] سورة الأنعام: الآية (٩٠).

ومن هنا يتبيَّن لنا أنه ما لمؤمن توصَّل أو يُريد الوصول إلى معرفة ربِّه غير هذا السبيل. أمَّا ذلك الإيمان التقليدي الذي يرثه الإنسان عن أبيه وأمه، ذلك الإيمان الذي لم يبذل الإنسان جهداً في الوصول إليه ولم يتوصل إليه عن طريق التفكير في آيات الله فما هو بالإيمان الصحيح، وإنه ليس بمنجٍ صاحبه بين يدي الله ولا بمغنٍ عنه شيئاً.

ومن الظاهر أن أكثر الناس ممَّن آمنوا هذا الإيمان التقليدي الذي ورثوه عن آبائهم قد ملك حب الدنيا قلوبهم فهم لا يعرفون حلالاً من حرام، ولا يميزون خيراً من شر ولا يتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل، أو إزهاق أرواح الأنفس البشرية في سبيل تأمين مصالحهم الخاصة أو إشباع شهواتهم الخبيثة وهم إلى جانب ذلك يدّعون الإيمان، ولو آمنوا حقّاً لسمت نفوسهم وكملت أخلاقهم قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِاليومِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤمِنِينَ، يُخادِعونَ اللهَ وَالذينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرضاً وَلَهمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعجبُكَ قَولُه فِي الحَياةِ الدُّنيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ ۞ وَإذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرضِ لِيُفسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسل وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾[2].

---

[1] سورة البقرة: الآية (٨-١٠).

[2] سورة البقرة: الآية (٢٠٤-٢٠٥).

نتائج الإيمان بالله وآثار معرفته:

والآن بعد أن بيَّنا الطريق الوحيدة في الوصول إلى الإيمان نُريد أن نبيّن نتائج الإيمان بالله وآثار معرفته فنقول:

إذا آمن الإنسان بربه الإيمان الصحيح، وعرف خالقه تلك المعرفة الخالصة فعندئذٍ تنطبع في قلبه الرحمة ويصطبغ بها بصبغة من الله، فيغدو رحيماً بالخلق شفوقاً على النّاس ولذلك تراه ينطلق جاهداً في عمل الخير ساعياً في إنقاذ البشر والأخذ بأيديهم من الظُلمات إلى النور، باذلاً وراء هذه الغاية كل غالٍ وثمين ولو كلَّفه الأمر أن يبذل روحه وأن يضحّي بماله وأعزّ ما عنده.

تلك هي نتائج الإيمان بالله وثمرات المعرفة الصحيحة؛ حب للخير وإنسانية عامة لا تقتصر على صديق أو قريب بل تشمل كل إنسان أيّاً كان، ذلك هو حال سيدنا إبراهيم ﷺ بعد أن توصَّل للإيمان وكذلك حال كل نبي ورسول، لا بل حال كل مؤمن بحسب ما بلغه من درجات المعرفة والإيمان، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة الواردة في سورة الأنبياء في معرض الكلام عن سيدنا إبراهيم ﷺ وغيره من الأنبياء والمرسلين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَينَا إِلَيْهِم فِعلَ الخَيْرَاتِ وإِقَامَ الصَّلاةِ وإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1].

وإذا أردت أن تطَّلع إلى تلك المناقشة المنطقية التي قام بها سيدنا إبراهيم ﷺ في هداية قومه وإبطال عقائدهم الفاسدة، فاستمع إلى ما أورده تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ آتَينَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبلُ وكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وقَومِهِ مَا هَذِهِ

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

التَّماثيلُ التي أَنتُم لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحَقِ أَم أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَبُّكُم رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرضِ الذي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِن الشَاهِدِينَ﴾[1].

وأنت ترى من خلال هذه الآيات الكريمة كيف أن الله تعالى عليم بهذا الإنسان فإذا هو فكَّر ساعياً وراء الحقيقة فإن الله تعالى لا بدَّ أن يهديه ويؤتيه رشده وذلك ما أشارت إليه آية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي: بعلمنا بصدقه هديناه وآتيناه رشده.

كما ترى أن جمود التفكير يجعل الإنسان يقلِّد غيره تقليداً أعمى ولا يريه ما في عمله من ضلال وغواية.

ثم إنَّ سيدنا إبراهيم ﷺ عزم في نفسه على أن يكسر هذه الأصنام على حين غفلة من قومه ليريهم أنها لا حول لها ولا قوة.

وما لبث أن نفَّذ هذا العزم وحقَّقه وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُم جُذاذاً إلاَّ كَبيراً لَهُمْ لَعَلَّهُم إليهِ يَرجِعُونَ ۞ قَالُوا مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا إِنَّه لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا سَمِعْنَا فتىً يَذْكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبراهيمُ ۞ قَالُوا فأتوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلتَ هَذا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[2].

وهنا انتهز سيدنا إبراهيم ﷺ هذه الفرصة وأحبّ أن يُجيبهم بجواب يُحرِّك به تفكيرهم الخامد وأدمغتهم المتحجِّرة فذكر لهم أن كبير الأصنام هو الذي فعل ذلك

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (٥١-٥٦).
[2] سورة الأنبياء: الآية (٥٧-٦٢).

بآلهتهم فلعلَّهم إذا سمعوا منه هذا الكلمة يفكِّرون قليلاً فيعرفون أنَّ هذه الأصنام لا حول لها ولا قوة وبذلك يستيقظون مما هم فيه من غفلة وضلال.

ومن الظاهر البيِّن أن إيقاظه لقومه بهذه الكلمة التي أوردها على هذه الصورة ليس بخطيئة، إذ الخطيئة إنما هي إخطاء الصواب والضلال عن طريق السعادة كما لا يمكن أن يعد كذباً إذ الكذب إنَّما هو كلمة الإثم التي يراد بها إيقاع الضرر على الناس، وكلامه هذا كله خير ونفع للناس، وإن ما ذكره هذا الرسول الكريم هو من حكمة النبوة وهو أبلغ مقال في مثل هذا الحال.

قال تعالى مشيراً إلى مقالة هذا الرسول الكريم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَه كَبِيرُهُم هَذا فَسئَلُوهُمْ إن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوا إلى أنفُسِهِمْ فَقَالُوا إنَّكُم أَنْتُمُ الظَّالِمُون ۝ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِم لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾.

وهنا بعد أن جعلهم يقرّون أن هذه الأصنام لا تستطيع أن تتفوَّه بكلمة وأنها لا حول لها ولا قوة بيّن لهم سخف اعتقادهم وبطلان عبادتهم وقبَّح لهم عملهم وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَعُكُم شَيْئاً وَلاَ يَضرُّكُمْ ۝ أُفٍ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعقِلُونَ﴾[1].

غير أن قومه بدلاً من أن يذعنوا للحق وينقادوا إليه عارضوا هذا الرسول الكريم وكادوا له فأنجاه الله منهم وكانوا من الأخسرين. وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إبْراهِيم ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخسَرِينَ ۝ وَنَجَّيناهُ وَلُوطاً إلى

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (٦٣-٦٧).

الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلعَالَمِين ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۞ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَةً يَهدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوحَينَا إِلَيهِمْ فِعلَ الخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[1].

والحمد لله رب العالمين

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (٦٨-٧٣).

قصة سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام

ومما ضربه الله تعالى لنا في القرآن مثلاً في الثبات والصبر على الدعوة إلى الله والرحمة بقومه سيدنا أيوب ﷺ فهذا الرسول الكريم نادى قومه ودعاهم إلى الله تعالى فما وجد منهم في بادىء الأمر إلا عناداً وصدوداً عن الحق ولم يلقَ لجهوده ثمرة وهنالك تألَّمَ عليهم ألماً كبيراً ووجد في نفسه ضيقاً وغمّاً عظيماً وحزناً عليهم وحسرة.

وما مثل هذا الرسول في تألمه على قومه وحزنه عليهم إلاَّ كمثل أبٍ شاهد ابنه قد أُصيب بمرض عضال يفتك في جسمه وقد أعيته الحيلة في انتشاله من براثن هذا المرض وتخليصه. ترى كم يتألم هذا الأب وكم يضيق صدره ويحزن كلما وقع بصره على ابنه. أقول وهكذا كان حال هذا الرسول مع قومه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة أي: واذكر عبدنا أيوب في رحمته بقومه وتألمه عليهم إزاء ما لقيه منهم من المعارضة الشديدة ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أي: ربِّ لقد دفعني ما ألقاه من الضيق والغم وحملني ما أجده في نفسي من الحزن والحسرة على قومي على أن أدعوك طالباً منك أن تكشف عني هذا الضرّ، أي: هذا الضيق بأن تهدي هؤلاء (**وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**): فارحمني يا رب بهدايتهم إذ في ذلك خلاص نفسي وشفاؤها مما بها من العذاب النفسي والتألم.

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (٨٣).

وقد استجاب الله تعالى دعاء رسوله وآن لقومه أن يهتدوا به وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وآتَيناه أَهلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِن عِندِنَا وَذِكْرَى لِلعَابِدِينَ﴾[1].

ويكون ما نفهمه من كلمة (**فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ**) أي: فرَّجنا عنه ذلك الضيق الذي ألمَّ به فآمن قومه وآمن آخرون من غيرهم بقدرهم رحمة من عندنا، أي: رحمة بهذا الرسول وبقومه. (**وَذِكْرَى لِلعَابِدِينَ**) أي: تذكرة لمن كان طائعاً لله قائماً بهداية العباد إلى الخالق ليعلموا أنه مهما حصل لهم من المعارضة والضيق فلا بدَّ أن يفرِّج الله عنهم ويجعل الخير على أيديهم والعاقبة للمتقين.

وهذه القصة التي جاءت موجزة في الآيتين السابقتين أوردها الله تعالى مفصَّلة في آيات أخرى وبيَّن لنا الطريق التي أمر تعالى هذا الرسول بسلوكها ليتوصَّل إلى هداية قومه فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيوبَ إِذْ نَادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيطَانُ بِنُصبٍ وَعذَابٍ﴾[2]. والمراد بكلمة (**مَسَّنيَ الشَّيطَانُ**) أي: أصابني منه بسبب ما يوسوس به في نفوس قومي. (**بِنُصبٍ**) أي: عناء وتعب فلا ألبث أن أقيم لهم البراهين والحجج حتى يوافيهم بوساوسه ويثير الشبهات حول ما كنت بيَّنته لهم.

أما كلمة (**وَعذَابٍ**) فإنما تعني ذلك التألم النفسي الذي كان يجده هذا الرسول الكريم على أولئك الضالين رحمةً بهم وحناناً عليهم.

ولما دعا هذا الرسول ربه استجاب الله تعالى دعاءه وأمره بالهجرة من بلده إلى بلد آخر فقال تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (٨٤).
[2] سورة ص: الآية (٤١).

أي أخرج من بلدك الذي أنت فيه والذي لاقيت ما لاقيت فيه من الضيق المعنوي بسبب المعارضات إلى بلد آخر فيه مغتسل باردٌ وشراب.

وقد جعل الله تعالى من هجرة هذا الرسول سبباً لهداية قومه ومثْلهم معهم وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1].

وقد أراد تعالى أن يفصِّل لنا كيفية اهتداء هؤلاء القوم فقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِهِ وَلاتَحْنَثْ﴾. **والضغث**: هو كل من اختلط واجتمعت أفراده في أصل واحد رغم تباينها واختلافها وهو أيضاً كل مجموع مقبوض عليه بجمع الكف، والضغث: هنا تعني الجماعة المختلطة من أصحاب ذلك الرسول الذين هاجروا معه من قريته والذين آمنوا به من ذلك البلد الذي هاجر إليه إشارة إلى اجتماع قلوبهم على الله رغم اختلاف مساكنهم وأنسابهم وقد أمر الله تعالى هذا الرسول بأن يأخذ هذه الجماعة المختلطة من المؤمنين وأن يجعل قيادتهم بيده فيضرب بهم أولئك المعاندين وذلك ما أشارت به كلمة (**فَاضْرِب بِهِ**).

ثم إن الله تعالى أمر هذا الرسول بأن يكون رابط الجأش في الحرب ثابتاً عند لقاء أولئك المعاندين غير متراجع عن المضي في دعوته. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: (**وَلا تَحْنَثْ**) أي: ولا تتراجع عن المضي في دعوتك وكن صابراً عند لقاء عدوك، ثم بيّن لنا تعالى أن صبر هذا الرسول الكريم هو الذي جرَّ له ذلك الخير

---

[1] سورة ص: الآية (٤٢-٤٣).

العميم فقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ أي بصبره تفضَّلنا عليه بما تفضَّلنا به وجعلنا هداية قومه على يديه ﴿نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1].

﴿نِعْمَ العَبْدُ﴾: أي جاءته النعمة منَّا وأكرمناه بما أكرمناه به لأنه أوَّاب، أي: راجع إلينا في جميع أموره، وأنت ترى من خلال هذه القصة مبلغ رحمة هذا الرسول بقومه وشدَّة تأثره عليهم كما ترى عظيم صبره وثباته في دعوته إلى ربه.

والحمد لله رب العالمين

---

[1] سورة ص: الآية (٤٤).

قصة سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام

أرسل الله تعالى سيدنا يونس عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وقد طال الجدل بينه وبينهم وعارضوه أشدّ المعارضة حتى ضاق بهم ذرعاً وظنَّ أنه لا يستطيع إلى هدايتهم سبيلاً ففارقهم متأثراً وذهب مغاضباً وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[1].

وإنَّ كلمة (**مغاضباً**) تُشير لك إلى عطف الرسول الكريم على قومه وشدّة رحمته بهم فلولا أنه كان حريصاً على هدايتهم ورحيماً بهم لما غضب من صدودهم عن الحق ولما تأثَّر من عدم اهتدائهم أما كلمة (**لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ**) الواردة في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيهِ﴾ فمأخوذة من القدر وهو أن يكون الشيء مساوياً لغيره بلا زيادة ولا نقصان تقول هذا قدر هذا أي مماثلاً ومساوياً له، وتقول قدَّر فلان لوح الزجاج على النافذة أي قاسه ثم قطعه بطول وعرض مناسب مع مكانه فيها تمام المناسبة، وتقول قدَّر الله على الرسول هداية قومه، أي: جعله هادياً لهم لما علمه في هذا الرسول من الأهلية لهداية قومه وما علمه فيهم من الاستعداد لتلقي الهدي والبيان ويكون مانفهمه من كلمة ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيهِ﴾ أي: ظنَّ أن لن نرزقه هدايتهم وأنه ليس فيهم ذلك الاستعداد لتلقي الهداية بعد أن لقي ما لقي منهم من المعارضات والصدود. وما دام قد أدى واجبه في التبليغ وبذل جهده في النصح وما داموا لم يوافقوه ولم يتوصَّل إلى الثمرة المطلوبة عزم هذا الرسول على مفارقة قومه وهجْرهم، وقد انتهى المسير بسيدنا يونس ﷺ إلى شاطىء البحر، فوجد فلكاً أي سفينة مشحونة بالركاب فركب

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (٨٧).

مع الراكبين وهو لا يدري ما أخبأه الله تعالى له في سفره هذا وسارت السفينة في البحر وقد ساهم سيدنا يونس ﷺ أي اشترك مع الركاب في تسيير السفينة وقام بدوره في التجديف وفيما هو يقوم بذلك زلق في البحر وغاص في الماء فالتقمه الحوت وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۞ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1].

وإنَّ كلمة (**أَبَقَ**) التي هي بمعنى هجر تبيِّن لك شدة ما عاناه هذا الرسول من قومه من الضيق بسبب ما قاموا به من الصدود والإنكار.

ولعلَّك تقول: لماذا أوقع الله رسوله في البحر ورماه في بطن الحوت وأحاط به ما أحاط من الغمِّ مادام قد أدى واجبه وبلَّغ قومه رسالة ربِّه؟.

فأقول: لا شك أن الله تعالى قادر على أن يُرسل إلى أولئك القوم رسولاً آخر ويهديهم به غير أن الله تعالى بعلمه بما بلغته نفس ذلك الرسول من السمو وما انطوى عليه قلبه من النيّة العالية وحب الخير أراد تعالى ألاَّ يحرمه من ذلك الخير وأن يجعل هداية هؤلاء على يديه ولذلك أوقعه فيما أوقعه به من الغم وضيَّق عليه هذا التضييق فلعلَّه بهذا الغمّ يعرف أنَّ الله تعالى إنَّما تفضَّل عليه بفضل كبير لانهاية له في تحميله إياه أعباء الرسالة وتكليفه بمهمة هداية قومه، وإنه إنما ظلم نفسه بتركهم وإنه كان يجب عليه أن يكون أصبر على الإنكار وأشدَّ ثباتاً في التبليغ رغم كل ما لاقى من المعارضات.

وقد أدى السقوط في البحر والتقام الحوت بهذا الرسول الكريم إلى هذه النتيجة التي أرادها الله تعالى وابتغاها له. فما أن أحاطت به ظلمة بطن الحوت وظلمة أعماق المياه في

---

[1] سورة الصافات: الآية (١٣٩-١٤٢).

البحر وظلمة الليل حتى نادى ربه في الظُلمات ملتجئاً إليه وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وكلمة (**لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ**): أي: يا رب أنت المسيّر وحدك وأنا لا حول لي ولا قوة في إخراج أحد من الكفر ونقله إلى الإيمان، فأنت أعلم بما في نفوس عبادك وأنت الهادي والمسيِّر تسيِّر كل نفس إلى ما يُناسبها وما عليّ من واجب سوى التبليغ والبيان وكلمة (**سُبْحَانَكَ**) أي: ما أعظم فضلك عليّ لقد ألقيتني في هذا الضيق لتعرِّفني أنك أردت لي الخير العظيم بإرسالي إلى قومي وأنا إنَّما حرمت نفسي من هذا الخير، إذ لم أكن أصبر وأثبت أمام هذه المعارضات وكلمة (**إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) أي: لقد ظلمت نفسي بعملي هذا وحرمتها من الخير فاغفر لي وامحُ من نفسي هذا التألم الذي أجده وأنت أرحم الراحمين وقد سمع الله تعالى مناجاة هذا الرسول الكريم فاستجاب له ونجَّاه من الغمِّ وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] أي: وكذلك كل مؤمن إذا هو في ساعات الشدّة والضيق التجأ إلينا ورجع كما رجع يونس فإننا نخلِّصه من تلك الشدّة وننجّيه.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا في هذه القصة نقطة أخرى من النقاط الهامة فذكر لنا أن الصبر على البلاء والاستسلام لله فيما يسوقه للإنسان من الشدّة هو أيضاً من الأسباب الموصلة إلى نيل الفضل الإلّهي واكتساب الدرجات العالية ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] أي: لولا أن يونس فكَّر وتعرَّف إلى السبب الذي جلب له هذه الشدة ورجع إلى ربه شاكراً فضله فنال ما

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (٨٨).

[2] سورة الصافات: الآية (١٤٣-١٤٤).

نال من الدرجات العالية بهداية قومه لجعلناه ينال ذلك الفضل الإلٓهي والعطاء عن طريق آخر فنبقيه مضيّقاً عليه مغموماً في بطن الحوت وبصبره على هذا البلاء واستسلامه ورضاه بما نسوقه له مع عدم علمه بالسبب نرفع درجته ونبلِّغه ما تأهلت له نفسه من المنازل العالية.

وأمَّا آية ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: فإنَّما تُشير لنا أيضاً إلى عدم فناء الأنبياء في قبورهم بعد الموت وبقاء أجسادهم على ما هي عليه إلى يوم القيامة ثمَّ إنَّ الله تعالى أخرج سيدنا يونس ﷺ من بطن الحوت إلى سطح الأرض، قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ورحمه تعالى بأن أنبت عليه شجرة من يقطين تظلِّله بأوراقها من الحر ومن كل ما يمكن أن يتعرض له جسمه الذي كان بسبب بقائه في بطن الحوت عرضة لأن تؤثر به أبسط المؤثرات. قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ﴾: ثم أرسله تعالى إلى قومه كرةً أخرى فآمنوا به.

قال تعالى: ﴿وَأَرسَلْنَاهُ إِلَى مِائَة أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۞ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[1]. وكلمة ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ تُشير لك إلى أنَّ الإنسان إذا هو آمن بربِّه ورجع تائباً إليه فإن الله تعالى يرفع عنه العذاب والشدَّة ويمتِّعه بالحياة الطيبة وممّا يُشير إلى هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلولاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمَانُها إِلاَّ قَومَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا ومَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[2].

والذي نفهمه من هذه الآية الكريمة أيضاً هو أن قوم سيدنا يونس عليه السلام وحدهم هم الذين آمنوا وكان إيمانهم سبباً في خلاصهم من العذاب. وهم الوحيدون

---

[1] سورة الصافات: الآية (١٤٤-١٤٨).

[2] سورة يونس: الآية (٩٨).

الذين اهتدوا من بين الأقوام السابقة. والله تعالى إنَّما يحثُّنا على أن نكون مثل قوم سيدنا يونس في الرجوع إلى الحق والاهتداء ليكشف الله عنَّا ما نحن فيه من البلاء لا أن نكون كأولئك المعاندين لرسلهم الذين ظلُّوا مثابرين على تكذيبهم حتى هلكوا وجاءهم أمر ربِّهم.

ومما تُشير إليه هذه القصة أيضاً تذكير المرشد والداعي إلى الحق بالصبر على إيذاء ومعارضة أهل الباطل فلعلّ القوم الذين يعارضون اليوم يهتدون غداً وسواء اهتدوا أم لم يهتدوا فما على الرسول إلاَّ البلاغ والله تعالى لا يُضيع أجر المحسنين وقد ساق الله تعالى بعض آيات هذه القصة مسلِّياً بها رسوله الكريم سيدنا محمداً ﷺ إثر المعارضة الشديدة التي لاقاها من قومه مبيِّناً له ضرورة الصبر والثبات وذلك ما تُشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذمُومٌ ۞ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

وكلمة (**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِكَ**) أي: لا تَضِقْ بهم ذرعاً، بل اثبت على التبليغ وربك عليم بما يناسبهم. وكلمة (**وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ**) أي: ولا تتركهم وتفارقهم متألماً من معارضتهم وما يقومون به من الإنكار والتكذيب. وكلمة (**إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكظُومٌ**) أي: إذ نادى ربه وهو في بطن الحوت مغموماً في نفسه. أمَّا كلمة (**لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذمُومٌ**) أي: لولا أن الله تعالى أنعم عليه بهذا الوقوع في بطن الحوت لنبذ بالعراء أي لظلَّ متروكاً عارياً من فعل الخير مذموماً من قبل

[1] سورة القلم: الآية (٤٨-٥٠).

نفسه في عدم فعله الخير بهجره لقومه، غير أنه برجوعه إلى ربِّه وإدراكه السبب الذي جرَّ له هذا التضييق وتقديره فعل ربه فيما ساق الله له من الشدة اجتباه ربه إليه وأعاده إلى قومه وجعل هدايتهم على يديه وجعله من الصالحين لعطائه تعالى وإحسانه.

والحمد لله رب العالمين

قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام

يريد الله تعالى في هذه القصة أن يعطينا درساً عملياً يعرِّفنا بكلمة (**لا إلّه إلاَّ الله**) وكلمة (**لا إلّه إلاَّ الله**) تعني أنَّ سير الأموركلّها والمخلوقات جميعها في هذا الكون العظيم إنَّما يؤول إلى مسيِّر واحد وهو الله سبحانه وتعالى. فهو سبحانه وحده المسيِّر وإليه وحده تؤول شؤون ما في هذا الكون من مخلوقات. كما يريد تعالى أن يعرِّفنا أيضاً بأنَّ السير الذي يُسيِّره لمخلوقاته إنَّما هو ضمن العلم والحكمة، أي إنه تعالى عليم حكيم، "**عليم**": بحال كل إنسان وبما انطوت عليه نفسه من كمال أو نقص مطَّلع على ما اكتسبه من خير أو شر، "**حكيم**": إذ يسيِّر كل إنسان فيما يناسب حاله ويسوق له ما يستحقه ممَّا اكتسبه وانطوت عليه نفسه.

ذلك المبدأ، مبدأ لا إلّه إلاَّ الله العليم الحكيم الذي هو أصل الإيمان وروح التوحيد يتجلَّى لك في قصة سيدنا يوسف ﷺ. فإذا أنت درستها وأمعنت النظر فيها عرَّفتك بكلمة (**لا إلّه إلاَّ الله**) وأنه تعالى حكيم وبيَّنت لك أنَّ سعادة الإنسان بيده فإن هو آمن بخالقه وأقبل عليه اصطبغت نفسه من الله تعالى بصبغة الكمال وسارت في طريق الطُّهر والفضيلة والعفاف. وهنالك يسوق الله تعالى لهذا الإنسان الطيِّب ما يناسب حاله ويجزيه على إحسانه بالإحسان وإلى هذه النتيجة الطيِّبة تُشير الآية الكريمة التي أوردها الله تعالى في قصة هذا الرسول الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1].

---

[1] سورة يوسف: الآية (٥٦-٥٧).

والآن بعد أن قدَّمنا هذه الكلمة الوجيزة نشرع بهذه القصة فنقول:

أكرم الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام على الرغم من شيخوخته بسيدنا إسماعيل وسيدنا إسحاق. وسيدنا يعقوب الملقَّب بإسرائيل هو ابن سيدنا إسحاق صلوات الله عليهم أجمعين. وقد وُلِدَ لسيدنا يعقوب اثنا عشر ولداً ذكراً، وكان سيدنا يوسف وأخٌ له من زوجة، والعشرة الآخرون من زوجة ثانية.

نشأ سيدنا يوسف عليه السلام في أحضان والده وقد اهتدى إلى معرفة ربه وهو ما يزال حدثاً طفلاً لـمَّا يبلغ السابعة من حياته، ولعلمه تعالى بما انطوت عليه نفس هذا الغلام من الكمال أراد تعالى أن يُبشِّره بما سيكرمه به من المنزلة العالية فأراه في المنام رؤيا قصَّها على والده بعد استيقاظه وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾: وقد استبشر سيدنا يعقوب ﷺ لابنه بهذه الرؤيا وعرف منها أنَّ الله تعالى مكرم ابنه، فالأحد عشر كوكباً هم إخوته ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: هما أبوه وأمه، هؤلاء جميعاً لا بدَّ لهم في يوم من الأيام أن يسجدوا له أي: لا بدَّ وأن يظهر لهم علمه ومقامه الرفيع وهنالك يخضعون له بنفوسهم ويقبلون على الله تعالى بمعيَّته مؤتمّين به ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ طالبين المعونة والمعرفة بواسطتي، طالبين منه أن يُعرِّفهم بالله.

وحيث أن سيدنا يعقوب ﷺ ذو بصيرة عرف أن هذه الرؤيا حق وفهم منها أشياء، كما عرف أن أولاده لم يصلوا للكمال بعد، لذلك حذَّر ابنه من أن يقصَّها على إخوته فيحسدوه ويكيدوا له، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا

بُنيَّ لاَ تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيداً إِنَّ الشَّيطَانَ للإِنسَانِ عَدوٌّ مُبينٌ﴾: أولئك الأولاد كانوا ميَّالين للإيمان خاف عليهم أن يحسدوا أخاهم.

ثمَّ بشَّره بما تُشير إليه رؤياه أيضاً فذكر له أنَّ الله تعالى سيجتبيه، أي: سيجعله من عباده المقرَّبين وسيعلِّمه من تأويل الأحاديث، أي: سيُريه المراد الإلَهي من كلامه تعالى المنزَّل على رسله وأنَّه سيتمُّ نعمته عليه في الدنيا فيجعله في منزلةٍ عالية وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾: وبهذه الرؤيا دلالة أنَّ الله يجتبيك. ﴿يَجتَبيكَ ربُّكَ﴾: يُقرِّبك إليه وبحسب علمك بأسماء الله تؤوّل كلامه. ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ﴾: استنتج ذلك من الرؤيا. ﴿وَيُتِمُّ نِعمَتَهُ عَلَيكَ وَعَلى آلِ يَعقُوبَ﴾: بواسطتك ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ ثمَّ بين له أنَّ هذا الكلام الإلَهي ليس جزافاً بل إنَّما هو مبني على علمه تعالى بأهلية هذا الغلام واستحقاقه ولذلك أتبع قوله بما بيَّنته الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: **عليم**: بما تنطوي عليه نفوس عباده وبأهلية كل إنسان. **حكيم**: يعطي كل إنسان ما يناسب حاله فلكلٍّ حقّه.

وقد أراد تعالى أن يفصِّل لنا هذه القصة ويذكر لنا المواقف العالية التي وقفها سيدنا يوسف ﷺ فكان بها أهلاً لما أناله ربه وأولاه من إكرام فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾: آيات بيِّنة وأمثلة واضحة تبيِّن أنَّ كل ما يقع في هذا الكون إنَّما هو بأمره تعالى فالتسيير كله له وهو تعالى عليم حكيم. ﴿للسائلِينَ﴾: عن طريق الإيمان، إن فكَّرت بها عرفت واستدللت على لا إلَه إلاَّ الله.

قالوا للرسول ﷺ: إن كانت الأمور بيد الله، فما ذنب الإنسان إذا أجرم!. وإن كان الله قد وضع فينا الشهوات والغرائز فكيف نمتنع عن الشهوات!. فردَّ تعالى عليهم ببيان حال سيدنا يوسف ﷺ وأن الإقبال على الله يعصم صاحبه.

قد يرد سؤال: لماذا شدَّد الله تعالى على سيدنا يوسف وأبيه وكلاهما نبيٌّ عالي المقام؟.

السبب: "سيدنا يوسف عالي".. لو ظلَّ مع أبيه لما رقي فقطْعه عن أبيه لكي يلتجيء إلى الله. أيضاً "سيدنا يعقوب عالي" قلبه متعلِّق بابنه فقطْعه عنه لكي يلتجيء فيرقى، كل فعل الله خير، الحمد لله رب العالمين.

ثم أورد لنا تعالى مراحل هذه القصة فقال: ﴿إِذْ قَالُوا﴾: فيما بينهم ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾: رأوا ميل أبيه إليه.. أبونا يميل إليهما أكثر منَّا!. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: كثيرون، ونحن نعاونه. إن استعان بنا نحن أكثرية أعنَّاه: يوسف وأخوه اثنان. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: غلطان غلطاً ظاهراً. ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوماً صَالِحِينَ﴾: عرفوا أن وجهة أبيهم لهم ترفعهم.

فائدة: وجهة المرشد لك تقرِّبك إليه، قال ﷺ: «**تهادوا تحابُّوا**»[1].

فبميل أبيكم لكم وميلكم له تحصل لكم الرابطة، فالارتباط يتم من الطرفين، وكذلك الأمر مع الله يجب أن ترى فضل الله عليك وتعلم أنه راضٍ عنك. بعملك العالي تحصل لك ثقة وهو تعالى يحبُّك.. كذلك الحال مع المرشد لا بدَّ من رابطة بين

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد، والبيهقي عن حديث أبي هريرة بسندٍ جيد.

الطرفين. ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ لكن من جهلهم ظنوا أن قتل أخيهم يخلي لهم وجهه، لا بدَّ من رضاء الله، ثم رضاء المرشد، رضاء الله أولاً. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾: وكان هذا أحسنهم ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطهُ بَعضُ السَّيَّارةِ﴾: لأخذ الماء ﴿إِن كُنتُم فَاعِلِينَ﴾: إن كان ولا بدَّ "قتله حرام" وهذا الشيء كله ليس من رأيي. ولما عزموا على تنفيذ الخطة: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾: لماذا لا تعطينا إيَّاه. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ﴾: هذا أخونا فما خوَّفك عليه!. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرتَعْ﴾: يرعرع يتنشط. ﴿وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذهَبُوا بِه﴾: هو يرى منهم عدم العطف على أخيهم وأنهم ما زالوا جاهلين. ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئبُ وَأَنتُم عَنهُ غَافِلُونَ﴾ كي يتخلص منهم. ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئبُ وَنَحنُ عُصبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرونَ﴾: هذا شيء لا يكون.. وأصرُّوا عليه. ﴿فَلَمَّا ذَهبُوا بِهِ وأَجْمَعُوا﴾: قرَّروا. ﴿أَن يَجعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: ورموه، وهو في الجبِّ: ﴿وَ أَوحَينَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾: كيف أوحى إليه؟. يوسف ﷺ يعرف أباه عالياً، ورأى الرؤيا وتأويل أبيه لها ففهم بأمرهم هذا ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بما لك من مستقبل عالٍ.

هنا طَمْأنه تعالى وبيَّن له أن الفعل فعل الله، لما صار وحده لا أخ ولا صاحب التجأ فارتفع: لو ظلَّ عند أبيه لما رقي ولو كان عند سيدنا يعقوب ﷺ لما التجأ ليعقوب ولما ارتقى ذاك الرقي.

الولد النبيه يضعه أبوه في المدارس لينبغ، لذلك وحتى يتعرَّف سيدنا يوسف على ربِّه سيتعرَّض لهذه السلسلة من الوقائع.

ثم إنهم رجعوا إلى أبيهم بعد أن ألقوا يوسف في غيابة الجبِّ مدَّعين أن الذئب قد أكله وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿وَجَاءُو أَبَاهُم عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ كذباً. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤمِنٍ لنَا﴾: ذاتاً الكذَّاب يبرِّر عمله. ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: وهكذا الكذَّاب يثبت كلامه فقد يحلف. ﴿وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدمٍ كَذِبٍ قَالَ بل سَوَّلَتْ لَكُم أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾: فسيدنا يعقوب ﷺ عرف من الرؤيا وكان عارفاً بإبنه فما صدَّق ذلك كله، فلا بد ليوسف من أن يرفع الله شأنه. ﴿فَصَبْرٌ﴾: على فراقه. ﴿جَمِيلٌ﴾: بعد هذا الصبر سيأتيه خير كثير فهذا الشيء نتائجه خير عليَّ وعليه، هذا الصبر سيعود عليَّ بالخير. ﴿واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾: أما هذا الشيء فما له أصل. هذه الآيات تدل على أن الفعَّال هو الله.

وستظهر لك الآن بعد أن نفَّذ الإخوة مؤامرتهم في أخيهم عناية الله تعالى ورعايته لهذا الغلام فما لبث في غيابة الجبّ حيناً حتى مرَّت قافلة وقد ألقى الرجل الذي يستقي الماء للقافلة دلْوه في البئر، فإذا به يجد فيه غلام ففرح به وضمَّته القافلة إلى البضاعة دون أن تُشعر بذلك أحداً وهكذا فقد أخرجه الله تعالى من البئر وهذه أولى مراحل فضل الله تعالى وإكرامه إياه وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾: وسيدنا يوسف ﷺ تمسَّك بالدلو. ﴿قَالَ يَا بُشْرى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إن إخراجه من البئر وضمَّه للقافلة، كل ذلك إنما بعلمه تعالى فالله يريد أن يرقِّي سيدنا يوسف ﷺ ولا بدَّ من مدرسة يدخل

فيها، وبذا صار له تدرُّج من حالٍ لحال، فالملك ملكه تعالى والتصرُّف في شؤون الكون كله عائدٌ إليه.

ثم إنَّ القافلة لـمَّا بلغت مصر باعت هذا الغلام إلى العزيز وكان رجلاً ليس له أولاد فأوصى زوجته بالعناية به وإكرامه، وتلك هي المرحلة الثانية من مراحل فضل الله تعالى على هذا الغلام وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿وَشَرَوْهُ﴾: باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودةٍ﴾: لعماهم عنه لم يروه: ﴿وكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: لم يعرفوا قيمته، العبرة للحقيقة لا للصورة. ﴿وَقَالَ الذي اشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ لامرأَتِهِ أَكْرِمي مَثْوَاهُ﴾: توسَّم فيه الخير إذ رأى النبالة في وجهه. ﴿عَسى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخذهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكنَّا لِيُوسُفَ في الأَرضِ﴾: وضع الحنان والرأفة بقلب العزيز وزوجه عليه، وكان في قرية صار في المدن، ﴿وَلِنُعَلّمهُ مِن تَأويلِ الأَحَادِيثِ﴾: في المستقبل. لكي نُرقِّيه ونرفع شأنه، فيوسف كان معتمداً على حبِّ أبيه له. لـمَّا وصل الجبَّ انشغل فكره، العزيز أكرمهُ فاطمأن اطمئناناً أمكن إقباله على الله واتجاهه إليه تعالى، فهذا الترتيب كله لرفع شأن يوسف ﷺ، عَلِمَهُ الله أنه أهل لهذا السمو فأدخله المدرسة. ﴿وَلِنُعَلّمهُ مِن تَأويلِ الأَحَادِيثِ﴾: لكي يحصل له إقبال على الله فيعرف أسماء الله ويؤوِّل كلامه بحسب عرفه العالي بالله. ﴿واللهُ غَالبٌ عَلَى أَمرِه﴾: لا مانع يحول دون إرادته، أمره يتمّ ولا بدَّ أن يقع لكن يعطي كلاًّ ما يناسبه، فكلُّ شيءٍ بيد الله ويعطي كلَّ إنسان حسب حاله. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُونَ﴾: أن الفعل فعله.

ولـمَّا شبَّ هذا الغلام وبلغ أشدَّه آتاه الله حكماً وعلماً، والحكم: إنَّما هو إنزال الأمور منازلها ووضع الحق في مواضعه، ومن البديهي أنَّ ذلك لا يكون إلاَّ بعد العلم

وشهود الحقائق. ذلك ما تكرَّم الله تعالى به على سيدنا يوسف ﷺ وذلك ما يؤتيه أيضاً كل امرئ محسنٍ مثله. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية: (**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**): صار له إقبال ضمن راحة، صار رجلاً (**آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً**): لِمَ الصلاة، لِمَ الصوم لِمَ مجيئك إلى الدنيا، لم خلقك؟. كل واحدة صار يعرفها، هذا الحكم نشأ عن علمه بالله. (**وَكَذلكَ نَجْزِي الْمُحسِنِينَ**): كذلك كل من يسلك ويصبح من المحسنين نعطيه، كل محسن من أهل الإحسان يُعلِّمه الله: لو ظلَّ عند أبيه لما صار له هذا الحال، ولو ظلَّ يعقوب وعنده ابنه لتعلَّق بابنه وابنه ما زال دونه عندها يتدنَّى من أعلى لأدنى، فالله تعالى قَطَعَ الإبن عن الأب والأب عن الإبن كل ذلك لحكم إلَهية يرقى بها الإبن والأب، وصار لهما المقام الذي أُهِّلا له.

وإن كلمة (**وَكَذلكَ نَجْزِي الْمُحسِنينَ**): تبيِّن لنا أنَّ العطاء الإلَهي لا يكون إلاَّ عن استحقاق وأهلية. فالله تعالى لم يؤتِ سيدنا يوسف ﷺ الحكم والعلم إلاَّ لأنه كان محسناً كما تبيِّن لنا أن ذلك قانون عام وسنة ثابتة فكل من كان محسناً آتاه الله الحكم والعلم.

وقد أراد تعالى أن يورد لنا مثالاً يبيِّن لنا فيه كيف كان سيدنا يوسف محسناً فقال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾: طلبته، كل شيء بيد الله هو الفعَّال لكن ضمن حكمة. زوجة رئيس الوزارة وهو في سن الرشد وهي دعته. ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: ادنُ مني. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ﴾: أنا معتز بالله والمعتز بالله

لا يدنو منه الشيطان. ﴿إِنَّه رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾: أقبلت على الله صار بقلبي علم رحمة حنان ورأيت هذا الطريق وما فيه. هذا لا يمكن. ﴿إِنَّهُ لاَ يُفلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: أنا لا أظلم، أي إنني إن طاوعتك أكون ظلمتك وظلمت نفسي وعاقبة الظلم الدمار وهذا الخالق المشرف على عباده لا بدَّ أن يجزي الظالم بظلمه ويعاقبه على سوء فعله، كذلك كل شاب معتز بربِّه يرى هذا العمل منحطّاً. يوسف ﷺ جميل وشاب، وامرأة العزيز جميلة "لكنه بما أنه معتز بالله أبى".. فانظر أيها الإنسان إلى آثار الإيمان بالله متمثلة في سيدنا يوسف ﷺ، إنها طهارة وعفَّة ووفاء وإخلاص لصاحب النعمة وشهود لحقائق الأمور، ومعرفة بالعاقبة، ثم انظر إلى آثار البعد مُتَمثِّلة بزوجة العزيز، إنها حب أعمى وخيانة وأنانية وشهوة لا تعرف وفاءً ولا إخلاصاً ولا تفقه بياناً ولا نصيحة، فعلى الرغم مما أظهر سيدنا يوسف ﷺ لهذه المرأة من الصدود وعدم الموافقة ورغماً عمَّا بيَّنه لها من سوء العاقبة، ما كان منها إلاَّ أن أصرَّت وهمَّت به. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾: دنت منه، أقبلت عليه، أمَّا هو ذلك الشاب الذي آتاه الله حكماً وعلماً فإنَّما همَّ بدفعها والخلاص منها قال تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: دَفَعَها، وهكذا فهمّ كلُّ امرىء بحسب ما في نفسه، فقد تأتي الأم بمسهِّل من زيت الخروع تريد أن تسقيه لطفلها الصغير فيعارضها في بادىء الأمر بالقول فإذا همَّت به فأمسكته لترغمه على الشرب همَّ بها دفعاً وتخلُّصاً. وهكذا فالهمّ الذي همَّهُ سيدنا يوسف ﷺ بالدفع والتخلُّص من المرأة والذي أشارت إليه الآية الكريمة إنَّما هو الهمّ الذي يصدر من كل إنسان استنار قلبه بنور ربه.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لك سبب عفَّة سيدنا يوسف ﷺ.. إنَّما هي تقواه وإن شئت فقل: إقباله على خالقه ورؤيته الحقائق بنور ربه، لذلك قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَءَا بُرْهَانَ رَبِهِ﴾. و(**بُرْهَانَ رَبِهِ**) إنَّما هو تلك الرؤية بنور الله وذلك الكشف الإلٓهي الذي يكشفه الله تعالى لعبده المقبل عليه فيريه بنوره تعالى خير الأمور من شرها وضررها من نفعها.

ويكون ما نفهمه من كلمة: (**لَوْلاَ أَن رَءَا بُرْهَانَ رَبِهِ**): أي إنَّ سيدنا يوسف ﷺ لولا أن كان مقبلاً على الله ناظراً بنوره تعالى مشاهداً حقيقة ذلك الأمر لما همَّ بدفعها.

إذاً التقوى تعصم وهذا من حكم السورة. وهكذا فالبشر جميعاً في الأصل متساوون وإنَّما يحصل التفاوت بينهم والسبق بحسب إقبال كل امرىء منهم على ربه، فمن كان أتقى كان أطهر وأنقى، ومن كان أكثر إقبالاً على الله كان أكثر استنارة وتلك هي العصمة، عصمة الأنبياء والرسل فبتقواهم الحقّة وإقبالهم المتواصل شهدوا بنور الله الحقائق فعفّوا وكفّوا عن المحارم وعُصِموا من الوقوع في الخطأ، وما ذكر الله تعالى لنا هذه الواقعة، عن هذا النبي الكريم في هذه القصة إلاَّ ليجعله لنا مثلاً أعلى في الطُّهر والعفاف وليبيِّن لنا أنَّ طريق التخلُّص من الفتن إنما يكون بإقبال النفس على الله واستنارتها بنوره، فإذا ما أحاطت بك الفتن أيها الإنسان فليس لك من سبيل للتخلُّص سوى الإقبال على الله وهنالك يشرق النور الإلٓهي في قلبك فترى الخير من الشر ببرهان ربك ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾: صار له الإقبال والكمال فاستخلصه الله، أخذ شهادة عالية.

وكلمة (**كَذَٰلِكَ**) يريد الله تعالى أن يرسم لنا بها قانوناً عاماً ثابتاً إلى الأبد فمهما أحاطت الفتن بالإنسان ومهما فسد الزمان واشتعلت نيران الشهوات فطريق الخلاص

منها ميسور مفتوح لكل مقبل على الله، فكل من سلك الطريق التي سلكها سيدنا يوسف عليه السلام لا بدَّ أن يحفظه الله ويصرف عنه السوء والفحشاء، ﴿..ولَنْ تَجِدَ لسنةِ اللهِ تبْدِيلاً﴾[1]، ﴿..ولَنْ تَجِدَ لِسُنتِ اللهِ تَحويلاً﴾[2].

ثم إن سيدنا يوسف ﷺ لم يجد وسيلة للتخلُّص من هذه المرأة إلاَّ الهرب والفرار فبادر إلى الباب فلحقت به وجذبته من قميصه فقدَّته من دُبُرٍ وكان من الموافقات الحسنة التي تبين لك تصاريف الأقدار الإلّهية بحسب حال الأشخاص أنَّهما وجدا العزيز عند الباب فما كان منها إلاَّ أن صرفت الشبهة عن نفسها وألصقتها بذلك الشاب الطاهر. وإلى هذه الواقعة تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿واسْتَبَقا البَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا البَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إلاّ أَن يُسجَنَ أَوْ عَذابٌ أَليمٌ﴾: هذه من عادات النساء، المكر.

أما هو فنفى ذلك عن نفسه بقوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْني عَن نَفْسِي﴾: وسكت ولم يحلف.

وقد أراد تعالى أن يظهر الحقيقة فألهم شخصاً من أهل زوجة العزيز أن يشهد شهادة تبيَّنت بنتائجها براءة سيدنا يوسف ﷺ، وكذلك الذي هو مع الله يُسخِّر له أناساً من أعدائه يشهدون معه. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن أَهلِها إن كَانَ قَميصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ۞ وَإن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

ونظر العزيز ساعتئذٍ: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾: أيها النساء. زوجها لامها: ﴿إنَّ كَيدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقد خشي العزيز أن يشيع الأمر بين

---

[1] سورة الأحزاب: الآية (٦٢).

[2] سورة فاطر: الآية (٤٣).

الناس ولذلك طلب من سيدنا يوسف ﷺ أن يكتم ذلك فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: استرنا، اسكت عن هذا الأمر لا تفشه، والتفت إلى زوجته وقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾: أنتِ ﴿لِذَنبِكِ﴾: هذا ذنب كبير ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾: هذا بيان لبراءته ﷺ. الخدم شعروا ففضحوا الأمر، وشاع أمر امرأة العزيز على الرغم من السعي في الكتمان.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾: نساء الوزراء لُمْنَها على عملها قالوا كيف!. ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾!. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾: امرأة وزير تراود فتى من فتيانها!. ما أجهلها، زوجة رئيس وزارة تتنازل لفتاها!. ما أدنى عملها، هذا مزري بحقها.

أما هي فلِتبرِّر موقفها وتتخلَّص من ملامة الناس لها: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: عزمتهنّ. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾: شيء من فاكهة تُقشَّر من تفاح وغيره. ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾: استعظموه. ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: وما شعرنَ. ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَراً﴾: أن يكون بشر على هذه الصورة. ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ﴾: هذا أيضاً دليل البراءة من الله فهذه براءة ثانية له وشهادة بطهارته. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾: لأحبسنّه ولأذلنّه.

وعلى الرغم من وضوح براءته ﷺ فسَّر العميان هذا بخلافه وعكسوه.

ولكن ماذا كان من سيدنا يوسف ﷺ لمَّا سمع بهذا التهديد؟. لقد آثر السجن على معصية الله وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾: نعم لقد وجد السجن وما يلقاه من ألم الأسر فيه أحبُّ إليه من الوقوع في ذلك الأمر المنكر، وآثر ذلك لأنه شاهد بنور الله الحقيقة.

فانظر أيها الإنسان إلى آثار معرفة الله في صلاح الفرد وعفَّته، وانظر إلى آثار هذه المعرفة في صلاح المجتمع الإنساني وحفظه من الأمراض الإجتماعية المهلكة. أفبعد هذا يستطيع قائل أن يقول شيئاً في الدِّين؟. سبحانك اللهم فماذا بعد الحق إلا الضلال وماذا بعد ترك الدين إلاَّ الفجور والاستهتار.

على أنَّ سيدنا يوسف عليه السلام بعد أن آثر السجن وبعد أن قال ذلك القول طلب من الله تعالى المعونة والتثبيت وأن يديم تعالى عليه ذلك النور ليظل مشاهداً للحقائق. وهكذا فالمؤمن يرى دوماً أنه عاجز بنفسه قوي بربِّه ودوام رعايته له وحفظه، ولذلك أتبع ﷺ بما أشارت به الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾: مع العلم والمعرفة والتقوى طلب من الله أن يخلِّصه منهن، فلايجوز للرجل مهما كان تقياً أن يختلط بالنساء أو يكلِّمهن. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: يوسف ﷺ لم يعتمد على نفسه نبي ورسول لم يعتمد على نفسه، لم يقل أنا أمين من نفسي، طلب من الله أن يحفظه. فلا يجوز للإنسان أن يعتمد على نفسه ويُجالس النساء ﴿أَصْبُ إِلَيهِنَّ وَأَكُن مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ أبعدني عنهن، فيقتضي ألا يكلِّم الرجل المرأة. ومن هنا يُفهم الحجاب وأن الرجل لا يجوز أن يرى امرأة وأنَّ الحجاب ضروري، فلا يجوز كشف الحجاب ولا رؤية النساء، المؤمن يتباعد، مهما علا يتورَّع. البعد عن

المحارم فرض. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾: ليُبعده. ﴿فَصَرَفَ عَنهُ كَيْدَهُنَّ﴾: تدبيراتهن. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾: فهو سبحانه **السميع**: دعاء كل امرىء وقوله. **العليم**: بحاله وصدقه وبما يناسبه "بحسب حاله يسوق له". فبعلمه تعالى بصدق سيدنا يوسف وطهارة نفسه استجاب له دعاءه وصرف عنه كيدهن، وسيَّره في طريق يُحفظ به.

وقد وجد العزيز وكل من له مساس بالأمر على الرغم ممَّا ظهر لهم من الآيات الدالة على براءة سيدنا يوسف ﷺ أنَّ خير وسيلة لإخماد هذه الشائعة وصرف الناس عن هذه الحادثة سجن سيدنا يوسف إلى حين ينسى المجتمع هذا الأمر فألقوه في السجن من غير ذنب جناه، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِن بَعْدِ ما رَأَوُا الآيَاتِ﴾: الدالة على براءته وطهارته. ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾: ينطفىء هذا الأمر وينساه الناس فلا يبقى هذا اللغط بحق زوجة العزيز، كما خاف الوزراء والوجهاء على نسائهم فوجدوا الأحسن حبسه ليستروا نساءهم.

وهكذا فقد أُلقي سيدنا يوسف ﷺ في السجن، لكن هذا السجن كان طريقاً لظهور شأنه العالي للملأ وبزوغ نجمه في الأفق وبلوغه ما كتب الله له من الرفعة. ﴿واللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾: فبيده وحده تصريف الأمور فإذا أراد بإمرىء خيراً فلا رادَّ لفضله.

وإنه لجالس ذات يوم في السجن إذ أقبل عليه سجينان رأيا فيه من حسن المعاملة وكرم الشمائل ولاح لهما عليه سيما الصلاح ما جعلهما يعرضان عليه رؤياهما ابتغاء التأويل. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوقَ رَأسِي خُبْزًا تَأْكُلُ

الطَّيْرُ مِنهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: رأوا لطفه، دلالته، كلامه كما شاهدوا فعله، معاملته، أخلاقه عالية كاملة، عرفوه قريباً من الله.

وسمع سيدنا يوسف ﷺ منهما رؤياهما وعرف التأويل غير أنه أراد أن ينتهز الفرصة وأن يكتسب المناسبة في إقبالهما عليه اهتماماً منهما بأمر رؤياهما فجعل يدلُّهما على الله ويوصيهما بالحق ويضع أمامهما المثل الواقعية عن نفسه مبيِّناً لهما أنَّه ما وصل إلى ما وصل إليه من المعرفة إلاَّ بتقواه لله ومعرفته به.

وهكذا كل مؤمن تجده حريصاً على هداية الخلق يتَّخذ المناسبات وينتهز الفرص ليدل الناس على الله ويأخذ بأيديهم إلى الحق، وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾: كل شيء سيسوقه الله لكما. ﴿إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾: أي قبل أن يقع لكما، تخبروني عنه أبيِّن لكما تأويله في اليقظة.

ثم تابع حديثه مبيِّناً لهما مصدر ذلك العلم فقال: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾: هذا ليس من عندي، هذا تعليم ربي لي. كيف علَّمه؟. لمَّا صار له إقبال على الله فغدا يرى بنور الله، ثم بيَّن لهما سبب تعليم الله إيَّاه وأن إعطاءه تعالى بالإستحقاق فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾: معتمدين على علمهم وقوتهم، هذا الترك جعلني أُفرِّق بين الحق والباطل، العزيز وجماعته وأهله هؤلاء غير مؤمنين تركتهم ورضيت بالسجن عن هذه المعيشة رغم مافيها من رفاهية ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾: لا يفكِّرون بها غير سائلين عنها وناكرينها، همُّهم الدنيا، الأكل والشرب، لولا أني تركتهم لما علَّمني، كذلك إن لم تترك الدنيا لا يعلِّمك الله. إن لم تكتحل عينك لن ترى.. الطبيب لا يكحِّلك إلاَّ إذا اتَّجهت نحوه وتركت الدنيا. ﴿وَاتَّبَعْتُ

مِلَّةَ آبَاءِي إِبْراهِيمَ﴾: ترك النمرود وترك كل شيء لرضاء الله. ﴿وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: كل شيء مما سوى الله نرميه، لا نعرف غير الاستسلام إلى الله ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُشْرِكَ بِاللهِ مِن شيءٍ﴾: الفعَّال هو الله. لا فعل بيد أحد سواه ولا نسمع سوى كلامه، كل مخلوق إذا اتَّبع هذا أعطاه الله، وكيف نشرك وقد رأينا الكون كله سائر به تعالى عيننا فتّحت ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلينَا﴾: استنارت قلوبنا بإقبالنا ورأينا إذ اخترنا وأعطانا. ﴿وَعَلى النَّاسِ﴾: عندما تختار يتفضَّل عليك،كل من طلب أعطاه هذا العطاء. هذه قاعدة عامة للناس كلهم، ليست خاصة بيعقوب ويوسف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾: خلقك للسعادة لا للشقاوة، خلق الخلق ليسعدهم.

ثم أرشدهما إلى التوحيد والعبادة فقال: ﴿يَا صَاحِبَي السِّجنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾: القوم كانوا يعبدون آلهة عدة: إله الشمس، إله القمر.. لو كانوا عدة آلهة لاختل النظام: بل إله واحد مسيِّر الكون بنظام، أفمن يسمع كلام هذا وهذا، أم من يسمع كلام الله وحده؛ لوكان هناك أرباب لحصل اضطراب. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُم وآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾: أقوال لا دليل عليها، أعظم رجل إذا احتبس بوله يصيح ويظهر ضعفه. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ﴾: هو الفعَّال وحده، ﴿. .إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم. .﴾[1]: يعطي كل إنسان ما يناسب نفسه. ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاه﴾: أمرك ألاَّ تُطيع دلالة أحد سواه. أما الرسول والمرشد فكلامه ضمن كلام الله، إذاً لا نسمع دلالة غير دلالته، وكل

---

[1] سورة الرعد: الآية (١١).

قول فإنما نرجع فيه لكتاب الله، غير كلام الله لا نسمع. ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: المستقيم الذي يدين إليه الإنسان العاقل. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وبعد أن أرشدهما إلى ما أرشدهما إليه شرع في التأويل فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ أي: أنه لا بدَّ ناجٍ من السجن وسيعمل في خدمة الملك. ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾.

ولعلَّك تقول: ما هو المراد من الرؤيا التي يراها الإنسان في نومه فأقول:

الرؤيا على ثلاثة أنواع:

١. **فالنوع الأول**: إمَّا أن يكون بشارة من الله تعالى لعبده فيُبشِّره فيها بخير سيناله أو شدّة سيخلص منها فلعل هذا العبد المحسن يستمر في سيره الطيب فينال ما بشَّره الله به، وإمّا أن يكون تحذيراً من الله تعالى يُحذِّر بها امرءاً من انقطاع الخير عنه أو الوقوع في شدة ومصيبة من المصائب، فلعل هذا المرء يرجع عن ضلاله ويتوب إلى ربِّه وبذلك يحفظه الله تعالى من تلك المصيبة التي كانت ستحل به بسبب شذوذه.

٢. **والنوع الثاني**: شيطاني، فقد يكون الإنسان سالكاً سبيل الإيمان فيأتيه الشيطان في الرؤيا ويُخيِّل إليه بتخيلات مزعجة يريد أن يحزنه بها ليقطعه عن سيره الطيب.. أو قد يكون الإنسان معرضاً فاسقاً فيأتيه الشيطان في نومه برؤيا يُخيِّل له فيها أنَّه ناجٍ وأنه من أهل السعادة ليزيده ضلالاً على ضلالة.

٣. **وأمَّا النوع الثالث**: فتكون الرؤيا فيه عبارة عن أخيلة لا رابطة تربط بينها وإنَّما هي أضغاث أحلام لا ترمز لشيءٍ ويكون هذا النوع ناشئاً عن ضيق نفسي بسبب فساد الأطعمة في الجوف أو ثقلها على المعدة والنوم قبل الهضم أو غير ذلك من

الحالات المرضية. فالرجل الحكيم بناءً على ما قدَّمناه إذا سمع رؤيا من شخص أو رآها بنفسه عرف نوعها وفهم المراد منها وما ينطوي فيها من المعاني وهكذا فقد أدرك سيدنا يوسف ﷺ ما تُشير إليه رؤيا هذين الفتيين السجينين فأوَّلهما لهما بحسب ما أراه الله تعالى. غير أنَّ الرجل الثاني الذي كانت تُشير رؤياه إلى أنه سيُصلب بدلاً من أن يقع ذلك التأويل الذي أوّله له سيدنا يوسف ﷺ موقعاً حسناً في نفسه فيحذر ويقلع عن ذنبه ويتوب إلى ربّه ليخلص من الصلب، ظلَّ مصرّاً على ما في نفسه وأنكر على سيدنا يوسف ﷺ تأويله وهنالك أجابه سيدنا يوسف بقوله فيما أشارت إليه الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾: أي أنَّ ذلك التأويل لا محالة واقع ثمَّ التفتَ سيدنا يوسف ﷺ إلى الشخص الذي تُشير رؤياه إلى أنَّه سيعود إلى خدمة الملك وطلب أن يذكره عند الملك وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنهُما اذْكُرني عِندَ رَبّكَ﴾: تذكيراً بنفسه، اعقل وتوكَّل. على أنَّ هذا الذي نجا نسي أن يذكّر سيّده ولذلك ظلَّ سيدنا يوسف ﷺ في السجن عدداً من السنين وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيطَانُ ذِكْرَ رَبِهِ﴾: نية الشيطان خبيثة، الفعَّال هو الله، وقد أعطى تعالى الشيطان نيَّته ليظهر شرف سيدنا يوسف ﷺ.

لم يكن سيدنا يوسف ﷺ قد استوى لدى دخوله السجن لذا نسي الفتى أن يذكِّر سيده وأثناء ذلك ازداد سيدنا يوسف ﷺ إقبالاً ورقيّاً، وهكذا فإن فعل الله كله خير.

سيدنا محمَّد ﷺ وهو في بطن أمه توفي أبوه، فَوُلِد منقطعاً منكسراً، في السادسة ماتت أمه، في الثامنة جدُّه، فكفله عمُّه، عمُّه كان فقيراً فكان يجوع عنده فيلتجىء

إلى الله فيرقى وعلى مدى (١٥) سنة كان يذهب للرعي في الجبال حيث الحر والبرد والعطش وهذه هي التربية. في الخامسة والعشرين من عمره الشريف زوَّجه خديجة، ثمَّ في الأربعين كان يذهب للغار، لما استوى أرسله رسولاً.. كذلك سيدنا يوسف ﷺ لم يكن لدى دخوله السجن قد استكمل نضوجه لذا لا يمكن خروجه حتى يستوي والشيطان أنسى الفتى تذكير سيِّده، ولكن عدم خروج سيدنا يوسف ﷺ إذ ذاك كان محض الخير، نيَّة الشيطان خبيثة لكن نتائج العمل كلها خير.

﴿فَلَبِثَ فِي السِجْنِ بِضعَ سِنينَ﴾: قيل ثلاث سنين، قيل سبع، قيل تسع. ولـمَّا نضج وأصبح أهلاً للإرشاد أراد الله تعالى أن يخرج سيدنا يوسف ﷺ من السجن وأن يبوِّئه تلك المرتبة العالية التي أعدَّها له والتي كان ﷺ حقيقاً بها. جعل تعالى ذلك بصورة تظهر معها للناس أهلية هذا النبي الكريم لتسنُّم هذه الوظيفة والقيام بأعباء تلك المهمة وكان ذلك بأن رأى الملك في نومه رؤيا أهمَّه أمرها وما استطاع هو ولا الملأ من حوله أن يعرفوا تأويلها وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾: ضعفاء. ﴿وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُم لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۞ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾: جمع أحلام "خربطة منامات". ﴿وَمَا نَحنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمينَ﴾: لا علم لنا.

وهنالك وفي هذا الهمّ المحدق وهذه الغمرة المحيطة بالملك ذكر الرجل الذي خلص من السجن وعاد لخدمة الملك ما وقع من صدق سيدنا يوسف ﷺ في تعبيره رؤياه.. فطلب أن يؤذن له بالذهاب إلى السجن ليأتي بالتعبير الصحيح الذي يقع فيه الملك على الرؤيا وحقيقة الأمر، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الذي

نَجَا مِنهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: بعد أن سأل الملك أمّة من المفسرين: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۞ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد فهَّم الله تعالى سيدنا يوسف ﷺ التعبير الصحيح فذكره لذلك الرجل وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾: أي بصورة متتالية وبصرف غاية الجهد. ﴿فَمَا حَصَدتُّم فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾: لأنَّ القمح إذا ظلَّ في سنبله لم يتسرَّب إليه السوس وغيره من الحشرات ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾: لا مطر فيها ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُم لَهُنَّ﴾ من السنوات الخصبة ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحصِنُونَ﴾: أي مما تبقون للبدار. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾: بمطر غزير ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: يستنفدون كل ما عندهم، حيث لا تبقى عندهم مؤونة إذ لا يبقون شيئاً.

وقد بلغ ذلك التأويل الملك الذي كان ينتظر بفارغ الصبر فَسُرَّ سروراً بالغاً وطلب أن يأتوه بسيدنا يوسف ﷺ وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾: فلما جاء رسول الملك إلى سيدنا يوسف أجابه ﷺ بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: ما قصتهنَّ ما قضيتهن؛ هل عرف الملك هذه المؤامرة؟. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾: الله عليم بها، إذاً لا بدَّ أنَّ فيها خيراً لي.

وهنالك سأل الملك النسوة بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَفسِهِ﴾: لماذا فعلتن ذلك؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا

عَلَيهِ مِن سُوءٍ ﴾: هذه براءة من الله له. ﴿ قَالَت امرأَتُ العَزيزِ الآنَ حَصحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدتُه عَن نَفسِهِ ﴾: أنا مخطئة ﴿ وإنَّه لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾: وهو طاهر شريف.

الأمر كله تربية من الله حتى يظهر شرف سيدنا يوسف ﷺ، فمن يرد الإيمان بلا إلٓه إلاَّ الله، يدقِّق بهذه القصة.

فسأله رسول الملك لِمَ لَمْ تخرج من السجن وتذكر قصتك للملك عندما طلبك فأجابه سيدنا يوسف ﷺ: أنا لم أخرج بل طلبت سؤال النسوة ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ﴾: الملك. ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾: للعزيز. ﴿ بالغَيب وَأَنَّ اللهَ لا يَهدِي كَيدَ الخَائنِينَ ﴾: لو كنت خائناً لما علَّمني ربِّي. ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾: أنا بذاتي لا حول لي. ﴿ إنَّ النَّفسَ لأَمَارةٌ بِالسُوء إلاَّ مَا رَحِمَ رَبي ﴾: إن أقبل الإنسان على الله واستنار بنور الله يُعصم ويُحفظ ويُشفى قلبه. ﴿ إنَّ رَبِّي غفورٌ رَحيمٌ ﴾: بالتقوى يرى الحقائق.

وأنت ترى من خلال هذه الآيات أنَّ سيدنا يوسف ﷺ استنكف عن الخروج من السجن وآثر البقاء في الأسر ما لم يظهر شرفه وبراءته للملأ. وكذلك شأن أصحاب النفوس العالية. فلما ظهرت الحقيقة وعلموا بطهارته وعفته وعلم هو أنَّ الناس سينظرون له نظرة إكبار وإنَّه إذا قال كلمة حق أخذها السامعون بعين التقدير لما عرفوه منه من الطهارة والعفة.

هنالك لـمَّا دعاه الملك لمقابلته لبَّى دعوته، فلمَّا حدَّثه رأى من علمه ومعرفته وصفاته الكاملة ما جعله يُسلِّمه شؤون الدولة ومقاليد الأمور وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ المَلِكُ ائتُونِي بِهِ أَسْتَخلِصْهُ لِنفْسِي ﴾: بعد أن امتنع سيدنا يوسف ﷺ عن الخروج من السجن كي يسأل الملك النسوة بعدها استقدمه.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾: رآه فهيم، ذكي، أهل. ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: رأى منطقه وكماله. ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾: وزير مالية. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾: عليها. ﴿عَلِيمٌ﴾: بتدبير الشؤون. من أين تعلَّم علم المالية وهذه الأصول وصار أهل لأن يرأس الوزارة ووزارة المالية!.من البئر لبيت العزيز للسجن للوزارة. ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾: رئيس وزارة أصبح، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء﴾: وكذلك كل مخلوق إن فعل كما فعل سيدنا يوسف ﷺ يريه الحق ويبعد عنه السوء، يرى الضلال والسعادة. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ﴾: إذا صارت للإنسان أهلية أعطاه الله. ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجرَ الْمُحسِنِينَ﴾: في الدنيا نرفع شأنه. "وكل من سار بطريق الحق رحمتنا نعطيه إياها وهذا ليس خاصّاً بيوسف ﷺ فقط بل هو عامٌ لكل محسن". ﴿وَلأَجرُ الآخِرَة خَيرٌ﴾: جعلناه رئيس وزارة ووزيراً للمالية ولكن الآخرة أعظم له و﴿للَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لمن آمنَ بالمربِّي ثم بلا إلَه إلاَّ الله عندها تحصل له تقوى فيرى بها الخير من الشر كما رأى يوسف عليه السلام: بتقواه رأى ما فيها، وكما رفع الله شأنه في الدنيا، في الآخرة أعلى.

وإن ما ورد في هاتين الآيتين الأخيرتين من قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحمَتِنا مَن نَشَاءُ ولا نُضيعُ أَجْرَ المُحْسِنينَ﴾: وقوله تعالى ﴿وَلأَجرُ الآخِرة خَيرٌ لِلَّذين آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعطينا مغزى عظيماً. تبيّن لنا أنَّ الكفَّ عن محارم الله، وأن الإستقامة على أمر الله لا بدَّ أن تصل بالإنسان مهما طال به الزمن إلى الرفعة في الدنيا وعلو الشأن فيها، وأنَّ طاعة الله دوماً مقرونة بالعز، كما تبين لنا أنَّ العطاء الإلَهي الذي يتفضَّل به تعالى على عباده المحسنين لا يقتصر على الدنيا وحدها بل إنَّ هذا العطاء يمتدُّ إلى

الآخرة ويدوم إلى الأبد. وذلك ما تُشير إليه الآية الثانية في قوله تعالى: ﴿وَلأَجرُ الآخِرةِ خَيرٌ لِلّذين آمنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وإنه أيضاً ليتبين لنا من خلال هذه الآيات الكريمة حنان الله تعالى ورحمته بنا، فهو سبحانه يضرب لنا الأمثلة العالية ويذكر لنا ما فعله أولئك الرسل الكرام وما عادت به عليهم استقامتهم من الخير لنقتدي بهم فننال من فضل الله تعالى ونتمتَّع بإكرامه فما أوسع فضل الله على عباده وما أشد حنانه ورحمته بخلقه ﴿. . إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ عَلَى النَّاسِ ولَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[1].

والآن بعد أن بيَّن لنا تعالى آثار التقوى في استقامة الإنسان وبعد أن أرانا ما سيناله المستقيم من العطاء الإلهي والإكرام، أراد تعالى أن يرينا المعاملة التي قابل بها سيدنا يوسف ﷺ إخوته لمَّا جاؤوه فقال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُم لَهُ مُنْكِرُونَ﴾: لأنهم رموه بالبئر ما خطر لهم ببال أنه سينال هذا المقام العالي. ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائتُونِي بِأخٍ لَكُمْ مِنْ أَبيكُمْ﴾: لأعطيه حصّته. ﴿ألَا تَرَونَ أنّي أُوفي الكَيل﴾: أعطيت كلاًّ منكم حقَّه بالتمام. ﴿وَأَنَا خيْرُ المنزلينَ﴾: أفلا ترون معاملتي وأني أعطي الحق!. ﴿فإن لم تأتُوني بِهِ فَلاَ كَيْل لَكُمْ عِندِي﴾: لا أعطيكم شيئاً. ﴿وَلَا تقْرَبُون﴾: من أجله ﴿قَالُوا سَنُرَاوِد عَنْهُ أَبَاهُ وإنَّا لَفَاعِلُونَ﴾: ما تقول ﴿وقَال لِفِتْيَانِه اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾: التي جاؤوا بها عن أخيهم. ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ﴾: أهله وأبوه. ﴿يَعْرِفُونَهَا﴾: أن المنع حقيقي. ﴿إذَا انقَلَبُوا إلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِم قَالُوا يَا أبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ﴾: عن أخينا.

[1] سورة البقرة: الآية (٢٤٣).

﴿فَأَرسِلْ مَعَنَا أخَانَا نكتَل وإنَّا لهُ لحافِظُونَ﴾: فلا تخشى عليه. ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيهِ إلاَّ كَمَا أمِنتُكُم عَلَى أخيهِ مِن قبْلُ﴾: هذا لا يكون. ﴿فاللهُ خيْرٌحَافِظاً﴾: إن شاء الله حافظه. ﴿وَهوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿ولَمَّا فتَحُوا مَتَاعَهُمْ وجَدُوا بِضَاعَتَهُم﴾: عن أخيهم. ﴿رُدَّت إلَيْهم قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾: كلامنا حق. ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّت إلينَا ونَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: نأتيهم بميرة. ﴿ونَحْفَظُ أخَانَا ونَزْدادُ كَيْل بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾: فلا يتعرقل عملنا، ويعطينا بسرعة.قال: ﴿لَنْ أُرسِلَهُ مَعَكُم حَتى تُؤتون مَوثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأتُنَّني بِهِ إلاَّ أنْ يُحَاط بِكُم﴾: إذا شيء قاهر. ﴿فَلَمَّا آتَوهُ مَوثِقَهُم قَالَ اللهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

مع العرف والعلم حنانه غالب عليه: ﴿وَقَالَ يَا بَنيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾: السبب البعيد عن الله قرينه الشيطان، فإذا نظر إلى شخص واستحسنه وكان المنظور بعيداً عن الله أيضاً، دخل الشيطان مع نفس هذا الحاسد إلى نفس المحسود فكان سبباً في أذاه.

إذاً: فالعين الحاسدة لها أصل لمن كان بعيداً عن الله ولا أصل لها لمن كان قريباً من الله. فإذا نظر شخص بآخر فاستحسن فيه شيئاً، وإذا كان الشخصان بعيدان عن الله، دخل الشيطان مع الناظر إلى نفس المنظور، فآذاه بخلاف ما لو كان لهما إقبال على الله[1].

﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِنَ اللهِ مِن شيءٍ﴾: "وكان الأب يفتخر ببنيه" لكن إن كنتم بعيدين عن الله واستحققتم استحقاقاً ما فلا أستطيع ردَّه عنكم، المقبل على الله لا

[1] انظر كتاب (موسوعة عمَّ ـ الجزء الأول ـ سورة الفلق) للعلامة الكبير محمد أمين شيخو.

يؤذيه أحد. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَعَلَيهِ فَلْيَتَوَكلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. يعطي كل إنسان حقَّه.

سيدنا يعقوب ﷺ: مع العرف والعلم كان حنانه غالباً عليه، الحكم بيد الله، هو المسيِّر بيده كل شيء، المتوكل يتوكل عليه وحده.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَا كَانَ يُغْنِي عَنهُم مِنَ اللهِ مِن شيءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعقُوبَ قَضَاهَا﴾: الواقع لا بدَّ منه لكن اتخاذ الأسباب والعطف، حنانه وعطفه دفعه لذلك ﴿وَإِنَّه لَذُو عِلْمٍ﴾: سيدنا يعقوب ﷺ يعرف حنان الله وعدله وحكمته وأنه يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾: أن المسألة والأمر بيد الله وأن الواقع واقع. فبأيِّ مدرسة علَّمه الله؟. إنه بإقباله تعلَّم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾: عدله حنانه رحمته وحكمته، وأن الأمر بيده تعالى ولا يغني أحد عن أحد وذلك لعدم اتِّباعهم المدرسة التي هو تعلَّم بها.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوى إِليهِ أَخَاهُ﴾: من أمه وأبيه ﴿قَالَ إِني أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾: وقد كانوا يعاملونه معاملة سيئة ويغارون منهما، وبغية أن يتقرَّبوا إلى أبيهم أحبُّوا أن يبعدوا أخاهم ومكروا به، مع أن القرب إنَّما يكون بالمسير العالي لا بهذا العمل. ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾: وعاء الملك. ﴿فِي رَحلِ أَخيهِ﴾: ﴿ثمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكمْ لَسَارِقُونَ﴾. ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾!. ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾: كفيل بأن نعطيه حِملاً. ﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَا جِئْنا لِنُفسِدَ فِي الأَرضِ﴾: جئنا لأخذ الميرة. ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾: بعمرنا. وكانت لهم إذ ذاك شهرة

بالصلاح، يعقوب ﷺ وأولاده. ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ، قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾: هو يُجازى فردَّ عليهم. ﴿كَذَلِكَ﴾: هذا صحيح، كذلك نفعل ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾: هكذا علَّمناه هذا الترتيب. السبب في ذلك. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾: بحسب القوانين، لا يخوِّله قانون الملك ذلك، كل إنسان وحقه، ما كان يوسف عليه السلام ليأخذ شخصاً ظلماً ولكن بهذا الترتيب استطاع. ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾: علَّمه الله هذا التدبير وهذه الطريقة ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ﴾: بالعلم. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: كلما أقبل المرء تعلَّم أكثر.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾: هذا ليس بأخينا، له أخ من أمه سرق قبله. ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾: بعملكم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: نحن لم نسرق قط. ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: الطيِّب يذيع صيته وتقرُّ له الناس، كما رأوا عدله وكيْله بالحق ولطف معاملته. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾: هذا ظلم ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾: هذا لا يكون ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾: يتحدثون مع بعضهم. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾: الذي حال من قبل دون قتله. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾: حكمه أخْيَرُ شيء من مصيبة أو فقر، كل شيء منه تعالى خير ويُحمد عليه لأنه

أحسن دواء للنفس. ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾: هذا ما رأيناه. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۞ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾: بقولنا.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾: كما فعلتم من قبل بيوسف، ابني لا يفعل ذلك قط. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: نتائج صبري كلها خير علماً منه بحال يوسف وأخيه. ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾: يوسف على حق وأخوه على حق وكذلك الثالث إذاً لا بدَّ أن يردَّهم الله تعالى. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾: أولادي أطهار أنا طاهر إذاً لا بدَّ أن يأتي بهم الله جميعاً، لن يضيم أولادي لأنَّهم طيبون. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾: حزناً على فراقه. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: خافي حزنه ﴿قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾: تُمرض نفسك. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾: تُهلك نفسك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾: هذا الفراق هذا الذي أحزنني. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾: ما أدراكم بتدبيرات الله "الأمور بيده" لا يضيع أولادي ويضيعني هذا الشيء لا بدَّ أن تكون نتيجته خير.

رأى سيدنا يوسف ﷺ رؤياه أن أباه سيكون ممن يدخل بمعيَّته على الله لكنه لم يكن قد وصل بعد إلى تلك الدرجة، فقُطع عن أبيه لينصرف بكلّيته إلى الله وأُبعِدَ عن أبيه لئلا يتعلّق به أبوه لأنَّ العالي إذا تعلّق بمن دونه توقَّف رقيُّه، فأُبعد كي ينقطع الأب عن ابنه ريثما يستوفي كماله.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تايْئَسُوا مِن رَوْحِ اللهِ﴾: الكافر لا يعرف رحمة الله وقدرته لذا ييأس، أمَّا المؤمن الذي عرف العدل والرحمة يعلم أنَّ الله لا يضيمه. ﴿إِنَّهُ لاَ يايْئَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: الذين لا يعرفون الله.. المؤمن يعرف كمال الله وقدرته.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزجَاةٍ﴾: مع فدية عن أخينا، مزجاة عن أخينا مرَّتين. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾: بهم، فما كان لكم من علم بقدرهما!. لا تعلمون قيمتهما!.

﴿قَالُوا أَءِنكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّه مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾: الصبر عن شهوات الدنيا والصبر على مراد الله، كل ما يأتيك خير ونتائجه ستكون خيراً.

الصبر على البلاء: البئر، البيع، السجن: كلها إن اتَّقى الإنسان ربَّه، إن دخل بمعيَّة أهل الإيمان تحصل له رؤية فيشاهد أسماء الله: العليم القدير الكامل عندها يشاهد ويعلم أن فعل الله كله خير في حقه. ولد فطن شدَّد عليه أبوه يُسَرُّ منه. وإن كان جاهلاً فشدَّد عليه فهو يغضب.

إذاً إن حَصَلْتَ على التقوى تصبر: اللجوج علامة على عدم حصول الإيمان، الإيمان مرتبط بالتقوى "العلم بلا إلَه إلاَّ الله يوصل للتقوى". التقوى توصل للعرف بالمربِّي وبكماله فيحصل الصبر.

فعلى المرء أن ينظر لنفسه عند المصائب.. إن كانت نفسه طاهرة فهذه علامة على أن الله سينقله لحال أعلى، إن لم تكن نفسه طاهرة معناه تطهير لكي يرجع. ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: النتائج للمحسن كلها خير.

وقد أراد تعالى أن يرينا طرفاً من المعاملة التي قابل بها سيدنا يوسف ﷺ إخوته لما جاؤوه معتذرين عمَّا بدر منهم على الرغم مما كانوا عاملوه به ليُعرِّفنا أن عطاءه تعالى لخلقه إنَّما هو ضمن العدالة والاستحقاق، فما رفع الله سيدنا يوسف ﷺ هذه الرفعة إلاَّ لما انطوت عليه نفسه من الكمال وليعلِّمنا أن صاحب النفس الكريمة التي أقبلت على الله لا يقابل مسيئاً بإساءته ولا يحقد على إنسان بل إنه إذا ملك عفا، وإذا نال أنال. وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَينَا﴾: رفع شأنك ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾: اعترفوا.

﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيكُمُ اليَوْمَ﴾: هذه صفة المؤمن ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾: متى تُبْت نِلْتَ المغفرة. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: بنا جميعاً فمن حنان الله وعطفه وإحسانه يغفر لك ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجهِ أَبِي يَأتِ بصيراً﴾: إذا ابيضَّت عين الإنسان من الحزن، الفرح يشفيها. ﴿وأْتُونِي بِأَهْلِكُم أَجْمَعِينَ﴾.

فانظر إلى هذا العتاب اللطيف والكلام الرقيق الذي يخاطب أخ إخوةً ألقوه في غيابة الجبِّ وفصلوه صغيراً عن أبيه وأمه وأرادوا أن يشرِّدوه في الأرض.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾: هذه هي الرابطة من حبِّه لابنه استنشق رائحته عن بُعد. ﴿لولا أَن تُفَنِّدُونِ﴾: ألاَّ تعرفوا الحقيقة فتكذِّبوني وتفصلوا بالأمر.

﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾: ما تزال على ما أنت عليه.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾: وهذا الحزن يبيض العين، فالفرح يفتحها. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾: أن الله لا يضيع مثقال ذرة. يوسف طاهر طيِّب، وأنا سيْري على حق، ولا بدَّ أن يجمعني الله بهم.

الله كله حنان وعطف: فما وقع لي ولأولادي كله خير. لولا أن يوسف أُبعد عن أبيه لما ارتقى هذا الرقي، فببعده عن أبيه أقبل على الله والتجأ فرقى، يعقوب ﷺ ببعد ابنه عنه التجأ فرقى. وهكذا ففعل الله كله خير، وفي السجن التجأ فعلَّمه ربه فأضحى يعرف كل شيء.. لما ارتقى الطرفان اجتمعا: جمع الله بينهما.

أنا أعرف أن ربي كله عطف وإحسان وأنتم لا تعلمون مثلي ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾: ﴿قَالَ سَوفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِي﴾: سأطلب لكم من يوسف. حقوق الخلق لا بدَّ من رضاهم. ﴿سوْفَ﴾. أي إلى أن أذهب ليوسف فأجتمع به أطلب لكم، حينما يعفو يوسف عنكم عندها نطلب لكم من الله، حق خاص وحق عام. ﴿إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: إن صدقت توبتك يا إنسان ألقى العفو في قلب غريمك.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوى إِلِيهِ أَبَوَيهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ﴾: أنا حاكم هنا. ﴿إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾: من كل ما ينغِّص.

وأخيراً انظر إلى هذه المناجاة التي وقف بها هذا النبي الكريم يناجي ربه وقد رفع أبويه على العرش وخرُّوا له سُجَّداً، فهو يرى الفضل الإلَهي عليه في أن أخرجه الله من السجن وجمعه بأبيه وأمه وهو يرى العناية الإلَهية ترعاه لتوصله بلطف لما أعدته له بناءً

على العلم والحكمة الإلٓهية، ثمَّ هو ﷺ يشكر ربه على ما آتاه من الملك وعلَّمهُ من معرفة المراد الإلٓهي من كلامه تعالى وذلك ما أشارت إليه الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾: لمكان مرتفع. ﴿وَخَرُّواْ﴾: جميعاً له ﴿سُجَّداً﴾: طلبوا منه أن يدخل بهم على الله إذ رأوه أعلى منهم إقبالاً على الله. ﴿وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾: إذ أدخلني السجن حتى صرت كاملاً ﴿وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾: نسبها للشيطان إذ وسوس لهم، لو كانوا قريبين إذْ ذاك من الله لما وسوس لهم ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾: نوره ساري مع الخلق يده على الخلق، مرَّرني بلطف من حال لحال، لم يَرَ شدة وتضييقاً بل رأى معاملة الرحيم له كلها لطف.

المؤمن إذا اتَّقى قال الحمد لله رب العالمين راضياً بكل تصرفات الله به في فقره، في رضى.. في مرضه، في رضى.

﴿إِنَّه هُوَ الْعَلِيمُ﴾: يجعل كل أمر في محله ﴿الْحَكِيمُ﴾: بحسب علمه يعطي كل امرئ حقَّه. ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾: جعلتني عزيز مصر. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾: أنت المعلِّم، وهو في السجن ﴿فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسلماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فإذا أنت أمعنت النظر في هذه المناجاة وما سبقها من الكلمات عرفت أن الإنسان إذا هو أقبل على خالقه وآمن بكلمة (**لا إلٓه إلاَّ الله**) حق الإيمان فهنالك يرى الكون كله مسيَّر بأمر الله فلا يحقد على أحد ولا يتألم من أحد بل يرى اليد الإلٓهية الرحيمة تُصرِّف الأمور بالحكمة والرحمة وهنالك

أيضاً يستسلم لخالقه حقَّ الاستسلام، إذ يشاهد من حنانه تعالى ورحمته ما يجعله يحمد الله تعالى على كل ما يسوقه لخلقه ويعلم أنَّ الله هو المُربي الحميد.

والحمد لله رب العالمين

قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام

رأينا من قبل في قصة سيدنا إبراهيم أن حفيده يعقوب وهو الملقَّب بإسرائيل رُزق إثنا عشر ولداً ذكراً، وكان سيدنا يوسف ﷺ أحد هؤلاء الأولاد، وقد استوطن أولاد سيدنا يعقوب ﷺ وسكنوا في بلاد مصر على عهد أخيهم سيدنا يوسف ﷺ.

ولم يمضِ حينٌ من الدهر حتى تكاثروا وتوالدوا وأصبح بنوا إسرائيل أمةً لها تقاليدها وعاداتها ومعتقداتها الخاصة من دون أهل مصر الذين كانت أكثريتهم من الأقباط وهم سكان مصر الأصليون، وكان ملوك الأقباط يدعون بالفراعنة وهم على جانب عظيم من السلطان والسيطرة.

فلمَّا فسد بنوا إسرائيل وحادوا عن دين الله وشريعته التي كان عليها آباؤهم من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب سلَّط عليهم أحد الفراعنة وكان كافراً بالله فجعل يستضعفهم ويسومهم سوء العذاب.

وتلك هي قاعدة عامة وسنَّة من السنن التي رسمها الله تعالى لهذا الإنسان في هذه الحياة. فإذا ما حاد المؤمنون عن طريق الحق ونبذوا وراءهم ظهرياً شريعة ربهم سلَّط الله عليهم رجلاً كافراً جبَّاراً عنيداً يُذيقهم ألوان العذاب وضروب المذلَّة فضلاً منه تعالى ورحمة بهم، فلعلَّهم إذا اشتدَّت عليهم وطأة هذا الظالم يثوبون إلى رُشدهم ويعرفون سبب هذه الشدة التي نزلت بهم فيرجعون ويتراجعون عن ضلالهم. ذلك هو ما أصاب بني إسرائيل، وذلك هو سبب نزول البلاء بالمؤمنين إن هو إلاَّ رحمة من الله تعالى بهم وفضل منه عليهم، قال تعالى مشيراً إلى هذه الناحية فيما أصاب بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ

نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

فإذا رجع هؤلاء المؤمنون إلى ربهم وأقلعوا عن ضلالهم أيَّدهم الله بقوة من عنده وأظهرهم على عدوهم فلعلهم يقلعوا عن كفرهم ويسلكوا سبيل الحق وهكذا فعله تعالى كله خير في حق كل مخلوق، وهو يُحمد على كل حال وفي النهاية يحمده كل مخلوق، قال تعالى: ﴿. . وَلَوْلا دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

وقد اشتدَّ البلاء على بني إسرائيل لـمَّا رأى فرعون في نومه رؤيا أفزعته كل الفزع لأنها كانت تشير إلى أن ملكه وسلطانه سيزول على يد رجل سيولد من بني إسرائيل. والرؤيا كما ذكرنا من قبل رحمة من الله تعالى بالإنسان بيدَ أنَّ فرعون بعد رؤياه هذه بدلاً من أن يتعظ ويرجع عن ظلمه وضلاله بالغ في الظلم والطغيان واستمر في العدوان، وظنَّ أنه يستطيع أن يدفع عن نفسه ذلك الخطر اللاحق به ولم يعلم أن الفعل بيد الله وحده فلا معقّب لحكمه ولا راد لأمره. ولذلك أخذ يذبح كل مولود ذكر لبني إسرائيل كما أباح لجنده نساءهم.

وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

---

[1] سورة البقرة: الآية (٤٩).

[2] سورة البقرة: الآية (٢٥١).

[3] سورة القصص: الآية (٤).

ولما أذاق الله تعالى بني إسرائيل على يد ذلك الطاغية وبال أمرهم وآن لهم أن يكشف الله تعالى عنهم ما هم فيه أخرج تعالى هذا المولود الجديد الذي سيكون على يديه تدمير ما كان يصنع فرعون وقومه، إذ لم يغيِّروا ما بأنفسهم ويرجعوا عن ظلمهم وغيِّهم وبغيهم، وبواسطته سيكون خلاص بني إسرائيل ممَّا حلّ بهم. وأوحى الله إلى أمِّهِ أن ترضعه فإذا هي خافت عليه أن تلقيه في اليمِّ ووعدها بأن يردّ إليها ولدها وبشَّرها بأنه سيجعله من المرسلين. وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَأَوحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فإذَا خِفتِ عَلَيهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمّ ولا تَخَافِي وَلَاتَحزَنِي إنَّا رَادُّوهُ إليكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلينَ ﴾[1].

وقد فعلت هذه الأم ما أمرها به ربها فأرضعت طفلها وألقته في اليمِّ.

وقد أراد ربك أن يُري فرعون وقومه وأن يري الناس جميعاً أن الفعل فعله تعالى فإذا أراد الله تعالى أمراً فلا مردّ له ولذلك أوقع هذا الطفل الصغير في يد آل فرعون لتكون تربيته في أحضان فرعون ذاته. ﴿ . . واللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . . ﴾[2].

وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ فالتَقَطَهُ آلُ فِرعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُم عَدُوّاً وَحَزناً إنَّ فِرعَونَ وَهَامَان وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[3].

ولـمَّا همَّ بذبح هذا الطفل كما كان يفعل بغيره من أبناء بني إسرائيل ألقى الله تعالى على هذا الطفل محبّة منه فوقع حبُّه في قلب امرأة فرعون وحالت بينه وبين ما أراد وإلى

---

[1] سورة القصص: الآية (٧).

[2] سورة الرعد: الآية (٤١).

[3] سورة القصص: الآية (٨).

ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . .وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وِلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[1].

والآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امرَأَتُ فِرعَوْنَ قُرَّتُ عَينٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

أما الأم فما أن ألقت طفلها في اليمِّ حتى هاجها حنانها وعطفها وكادت تلحق به وتُظهر للناس أمرها. لكن الله تعالى ثبَّتها وربط على قلبها فذكرت ما وعدها به ربها وهنالك عادت إليها طمأنينتها. قال تعالى ﴿وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَولا أَن ربطنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد طلبت من ابنتها أن تتبع أخاها لترى ما سيكون من أمره. ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾: أي تتبَّعيهِ. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[2]: أي لم يدرِ آل فرعون ولم يشعروا بأنَّ ذلك الطفل أخوها.

وإذا أردت أن تدرك أن وعد الله حق وأن الفعل في هذا الكون بيده تعالى وحده فانظر إلى الكيفية التي أعاد الله تعالى بها هذا الطفل إلى أحضان أمه. لقد جاؤوه حينما قرّ رأيهم على تبنِّيه، واتخاذه ولداً بعددٍ من المراضع يرضعنه فأبى وما ارتضى ثدياً، وكيف يرضع وقد كفَّ الله فمه عن الإرضاع منهنَّ وحرَّم عليه المراضع جميعاً. قال تعالى: ﴿وَحَرَّمنَا عَلَيهِ المَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

وفيما هم في هذا الهم المحدق لا يعرفون منه مخرجاً دنت أخته منهم وهم لا يشعرون بصلتها به ولا قرابتها منه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْت يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وما أن جاءت الأم حتى أقبل ذلك الطفل عليها وأخذ يرضع رضاعاً

---

[1] سورة طه: الآية (٣٩).

[2] سورة القصص: الآية (٩-١١).

متواصلاً. ففرحوا بذلك أشدَّ الفرح وكفَّلوها إيَّاه. وبذلك على غير شعور من فرعون وملئه ردَّ الله تعالى إلى الأم ولدها. وأعاده إلى أحضانها آمنة مطمئنة. قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد ترعرع سيدنا موسى ﷺ في أحضان فرعون وما زال حتى بلغ أشدَّه واستوى وهنالك آتاه الله حكماً وعلماً. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

والحكم كما مرَّ معنا في قصة سيدنا يوسف ﷺ هو إنزال الأمور منازلها ووضع الحق في مواضعه. والحكم لا يكون إلاَّ بعد العلم ورؤية الحق. أما كلمة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: فإنما تُشير لنا إلى أن العطاء الإلّهي إنما هو مبني على قواعد ثابتة وقوانين. فالله تعالى لا يؤتي الحكم والعلم إلاَّ لمن كان صادقاً وعلامة صدق الإنسان أن يقدم من الأعمال الطيبة ويسلف من الإحسان ما يجعله حقيقاً بذلك الإكرام.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا ما قدَّمه هذا النبي الكريم من أعمال يستحق بها ذلك العطاء فذكر لنا قصته مع القبطي.

وخلاصة هذه القصة أنَّ سيدنا موسى ﷺ كان ذات يوم ماراً في أحد شوارع المدينة فوجد رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل أي: من قوم سيدنا موسى ﷺ والآخر من القبط أي: من قوم فرعون وقد أخذ القبطي ينال من الإسرائيلي والإسرائيلي مغلوب على أمره بين يدي عدوّه ولا يجد من ينصره. فما أن رأى سيدنا موسى مقبلاً

---

[1] سورة القصص: الآية (١٢-١٤).

حتى استغاث به واستنصره، ووقع سيدنا موسى ﷺ في هذه البرهة بين أمرين: أيظل مقيماً في مصر آمناً مطمئناً بما بين يديه من مُلْك في ظلال فرعون وما يُريد من دنيا واسعة ويدع هذا الإسرائيلي للقبطي يظلمه ويعذبه، أم لا يبالي بهذا كله ويضرب على يد ذلك الظالم ولو أدَّى به الأمر إلى أن يعرِّض نفسه لغضب فرعون والتضحية بكل ما يجده من حياة الدعة والطمأنينة. وهنالك وفي هذه اللحظة أبت عليه مروءته أن يدع ذلك المظلوم دون أن ينصره ودفعه حبُّه للحقِّ أن وكز بيده ذلك القبطي ليبعده عن الإسرائيلي، ومن شدّة ثورة الحق بنفس سيدنا موسى عليه السلام كانت ضربته معبِّرة ساحقة ماحقة لباطل الظالم فقضت على باطله وعليه وخرَّ القبطي المعتدي صريعاً ميتاً.

وإلى هذه الواقعة أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هذا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِهِ فَاسْتَغَاثَهُ الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيهِ﴾.

ولما رأى سيدنا موسى ﷺ ما حلَّ بهذا الظالم بسبب ظلمه التفت إلى الإسرائيلي يعظه ويحذِّره فقال: ﴿هَذا مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ﴾ أي أن خصمك مات وحلَّ به ما ترى بسبب متابعته للشيطان فاحذر أن تطيعه في ظلم أحد لئلا يصيبك ما أصاب خصمك. ثمَّ تابع قوله فقال: ﴿إنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌ مُبِينٌ﴾.

وقد أدرك سيدنا موسى ﷺ أنه بعمله هذا قد عرَّض نفسه للخطر وانكشف أمره بأن أصله إسرائيلي وهو من يخشاه فرعون على حياته وملْكه، فإذا ما انكشف أمر قتله للقبطي وعرف فرعون وملؤه ذلك فلا بدَّ أنهم سينتقمون منه. ولذلك طلب من

الله تعالى أن يغفر له أي أن يحفظه من شرِّهم وأذاهم، وإلى هذا تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ أي: إنني بنصرة هذا المظلوم عرَّضت نفسي لإيذاء هؤلاء الظلمة وقد كنت من قبل آمناً مطمئناً مجهول الهويَّة لا أخاف منهم أحداً فاحفظني من شرِّهم.

وقد استجاب الله تعالى دعوته ووقاه وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وإذا أردت أن تدرك قيمة هذا العمل العظيم الذي قام به سيدنا موسى ﷺ: فتصوَّر أنك في بلد حاكمه مستبد والحاكم وأهل ذلك البلد كلّهم من أعدائك وذات يوم وجدت رجلاً من هؤلاء الأعداء يظلم رجلاً من قومك فضربت العدو وانتصرت للحق. ترى كم تكون قد عرَّضت نفسك للخطر وكم يكون قلقك عظيماً؟.

فإذا تصورت نفسك في مثل هذا الوضع أدركت ذلك الحال الذي أصبح فيه سيدنا موسى ﷺ وأدركت قيمة عمله.

على أن سيدنا موسى ﷺ في كل ما تعرَّض له من خطر ظلَّ ثابتاً على مبدئه في نصرة الحق وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلمُجْرِمِينَ﴾[2] أي: ما يكون لي وقدجعلت في قلبي ما جعلت من حبٍّ للحقِّ أن أكون معيناً للمجرمين الذين حرموا أنفسهم من كل خير.

---

[1] سورة القصص: الآية (١٥-١٦).
[2] سورة القصص: الآية (١٧).

وفيما هو على ذلك الحال من القلق، رأى في اليوم الثاني رجلاً آخر من القبط يظلم ذلك الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس فما أن رأى ذلك الإسرائيلي سيدنا موسى ﷺ مقبلاً حتى استصرخه مستغيثاً به.

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾.

هنالك التفت سيدنا موسى ﷺ إلى الإسرائيلي وخاطبه قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: إن تسلَّط ذلك القبطي عليك بالأمس وما وقع من التسلُّط عليك اليوم يدلُّ دلالة صريحة على غوايتك أي شذوذك وخروجك عن الحق ولو كنت امرءاً مستقيماً على الحق لما سلَّط الله عليك أولئك.

ولـمَّا أراد أن يبطش بالقبطي ليخلِّص الإسرائيلي من شرِّه خاطبه القبطي قائلاً يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

إذن لقد شاع في المدينة الأمر وتبيَّن أن موسى ﷺ هو الذي قتل بالأمس ذلك القبطي، وهنالك ثارت ثائرة القبط وصمم فرعون وملؤه على قتل سيدنا موسى، وقد أراد ربك أن يحفظ سيدنا موسى ﷺ من أذاهم ومكرهم فساق رجلاً كان قد اطّلع على تلك المؤامرة ليخبر سيدنا موسى بالأمر. قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[1].

---

[1] سورة القصص: الآية (١٨-٢٠).

وأنت ترى من هذا أنَّ الله تعالى هو العليم الحكيم وأنه هو المتصرِّف في هذا الكون فبيده تعالى وحده الأمر. وقد ساق ذلك الرجل من أقصى المدينة ليخبر سيدنا موسى بما تآمر عليه أعداؤه، وكذلك كل من كانت غايته من عمله رضاء ربه فلا بدَّ أن يحفظه الله من كلِّ مكروه.

وقد خرج سيدنا موسى ﷺ من مصر وانتهى به مسيره إلى بلاد مدين وجمعه الله تعالى بسيدنا شعيب ﷺ، فلما قصّ عليه قصته قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

وقد رغب سيدنا شعيب ﷺ بهذا الشاب من بعد ما رأى من مروءته وصفاته العالية في أن يجعله زوجاً لابنته. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ . .﴾[1].

والحجج جمع حجة وهي السنة ومكث سيدنا موسى ﷺ في مدْين برفقة ذلك الرسول الكريم السنين ذوات العدد ثم سار بأهله، وفي الطريق آتاه ربُّه الرسالة وأمره بأن يذهب وأخاه إلى فرعون وآتاه تعالى من الآيات ما يكون عوناً له في تأدية رسالة ربِّه.

ومن رحمة الله تعالى ولطفه بعباده أن أمر رسوله بأن يقول لفرعون قولاً ليناً فلعلَّه يتذكَّر أو يخشى فيُرحم ويزداد رفعة شأن بالدنيا وبالآخرة. قال تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

وإنك إذا نظرت في هذه الآيات الكريمة عرفت حنان الله تعالى ورحمته بعباده. وإذا كانت هذه رأفته ورحمته بأشد الناس طغياناً وخروجاً عن الحق فكيف بمن أطاعه وسار على أمره.

---

[1] سورة القصص: الآية (٢٧).

[2] سورة طه: الآية (٤٢-٤٤).

ذهب سيدنا موسى وأخوه عليهما السلام إلى فرعون وبلَّغه رسالة ربه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ حَقِيقٌ عَلَى أَن لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

وعلى الرغم مما جاءهم به من البيِّنات ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وقال فرعون إنَّ موسى ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۞ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[1].

وهكذا فالإنسان إذا هو لم يفكِّر بما في الكون من آيات وإن هو لم يتوصَّل بذاته من تعظيم الكائنات إلى تعظيم خالقها وموجدها فليس تنفع موعظة نبي ولا رسول فيه، ولا توقظه من غفلته معجزة ولا آية.

وطلب الملأ من قوم فرعون كما رأينا أن يأتي بالسحرة ليتباروا مع سيدنا موسى ﷺ وما أدركوا بياناً، وكذلك النفوس التي سيطرت عليها شهواتها وملأها حبّ الدنيا تعمى عن الحق. وقد أشار ﷺ إلى هذه الناحية بقوله: «**حبّك الشيء يعمي ويصم**»[2].

وقد أرسل فرعون في المدائن حاشرين يأتوه بكل سحّار عليم. وقد أشار تعالى إلى ذلك في الآيات الكريمة بقوله: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَكُونَ نَحْنُ

[1] سورة الأعراف: الآية (١٠٤-١١٢).

[2] أخرجه أبو داوود عن أبي الدرداء، مسند أحمد ج٥، ص١٩٤.

المُلْقِينَ ۞ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاس واسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَل مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُوا هُنالِكَ وانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۞ وَأُلْقِي السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞ قَالُوا آمَنَّا بِربِّ العَالمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾[1].

وهكذا فقد ألقي السحرة سجداً وآمنوا جميعاً، أما فرعون وقومه فما ازدادوا إلاّ عتواً وطغياناً وجحوداً بآيات ربِّهم واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً. وقد هدَّد فرعون السحرة بالتعذيب والتنكيل فلعلَّهم يرجعون عن إيمانهم، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُم لَهُ قَبل أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السّحْرَ فَلأُقطِعَنَّ أَيدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخل وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾[2].

فما كان جواب السحرة إلاَّ أن: ﴿ قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنا مُنقَلِبُونَ ۞ إِنَّا نَطْمعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّل المُؤمِنِينَ﴾[3]. وما أرهبهم تهديده ولا هالهم ما توعَّدهم به من التنكيل.

وهكذا النفوس التي خالطتها بشاشة الإيمان ترى كل شيء هيّناً في سبيل التخلّص من عذاب الله وتسترخص أثمن ما تملكه وتبذل روحها عن طيب نفس منها ابتغاء دوام القرب من الله والشهود لكمال الله.

---

[1] سورة الأعراف: الآية (١١٣-١٢٢).

[2] سورة طه: الآية (٧١).

[3] سورة الشعراء: الآية (٥٠-٥١).

ويوضّح لك هذه الناحية الهامة الآية الكريمة التي ذكرها الله تعالى على لسان السحرة بقوله: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البيّنات والذي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إنَّما تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عليه مِنَ السِّحرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1].

وإذا أردت أن تدرك مبلغ ما وصل إليه هؤلاء السحرة من الإيمان فانظر إلى ما بيَّنته الآية الكريمة على لسانهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّه مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ولاَ يَحْيَى ۞ وَمَن يَأْتِهِ مُؤمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾[2].

ففي برهة وجيزة وإن شئت فقل في لحظة واحدة عرفوا ربهم الذي فطرهم وشاهدوا من كماله ورأوا من الآيات البيّنات الدالة على رحمته وحنانه وحصل لهم من القُرب من جنابه ما جعلهم يرون أنَّ الحياة الدنيا رخيصة لا قيمة لها وأنَّ القرب من جنابه تعالى خير وأبقى كما شاهدوا بنوره تعالى الآخرة، وحال النَّاس فيها، فمن يأت ربه مجرماً فإنَّ له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمناً قد عمل الصَّالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى.

لقد عرفوا حال أهل النَّار وحال أهل الجنة، وكذلك الإيمان بالله يتبعه الإيمان باليوم الآخر والجزاء على الأعمال.

ولعلك تعجب من هذا الإيمان العالي والمعرفة السامية التي توصَّل إليها هؤلاء السحرة في لحظة واحدة، مع أنَّ أناساً يقضون العمر كله في الدرس والاستقصاء

---

[1] سورة طه: الآية (٧٢-٧٣).

[2] سورة طه: الآية (٧٤-٧٦).

والبحث ويقومون بشتَّى الأعمال التي يتوسَّلُون بها القربى إلى الله ولا يبلغون معشار ما آتاه الله تعالى لهؤلاء السحرة!.

فأقول: لا عجب، فإنَّ الله تعالى جعل رسله لعباده سراجاً منيراً، فإذا رافقت النفس نفس رسولها وسراجها استضاءت بذلك النور الإلّهي المتوارد عليها وسرعان ما ينكشف لها الحق وترى الحقائق وتشاهدها بذاتها. أمَّا مرافقة هذه الأنفس العالية فلا يكون إلاَّضمن قانون تخضع له النفس ولا تتعدَّاه وأعني بذلك استعظام الرَّسول وتقديره وتوقيره فإذا ما تحقَّقت هذه المقومات وحصل هذا التقدير والتوقير والاستعظام تحققت النتيجة وحصلت المرافقة والإرتباط وبالتالي حصلت الاستنارة بذلك السراج.

فهؤلاء السحرة لمَّا رأوا من المعجزات التي قام بها سيدنا موسى ﷺ بأمر ربه ما أبطل سحرهم جميعاً عرفوا أن ما جاء به أعظم من سحرهم وهنالك أكبروه وقدَّروه وأقبلت نفوسهم عليه مستعظمةً، وبإقبالها هذا عليه رأت بنوره الحق وحصلت لها التقوى وشاهدت كمال الله ورأت ما رأت من الآيات. أمَّا فرعون الذي لا خبرة له بالسحر والذي كان قلبه مشحوناً بحبِّ الدنيا، فرعون الذي رأى سيدنا موسى صغيراً ولبث عنده من العمر سنين استيقنت نفسه ما رأى من معجزات، غير أنه لم يستعظم سيدنا موسى ﷺ ولم يقدِّره، بل نظر إلى ماضيه لمَّا ربّاه طفلاً ولذلك لم ترَ نفسه من الحقائق شيئاً، وما كان منه إلا التهديد والوعيد.

قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُم وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوقَهُم

قَاهِرونَ، قَالَ مُوسَى لِقَومِهِ استَعِينُوا باللهِ واصْبِرُوا إنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ والعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وقد توالت عناية الله تعالى بفرعون وقومه إذ على الرغم من تكذيبهم وطغيانهم فقد أرسل الله تعالى لهم من الآيات وساق عليهم البلاء ما هو كفيل بردّهم إلى الحق. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ومادام التفكير سبيل الإيمان وطريقه ولذلك ففرعون وقومه الذين ما كانوا يفكِّرون في ذلك كله ما كانوا ليؤمنوا ﴿فَإذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبهُم سَيّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَعهُ أَلا إنَّما طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وقد عدّوا كل ما جاءهم به سيدنا موسى سحراً. ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحنُ لَكَ بِمؤْمِنينَ﴾ ومن رحمة الله تعالى بهم أن زاد عليهم في التضييق فلعلَّهم يثوبون إلى رُشدهم ويرجعون عن ضلالهم. قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيهِمُ الطُّوفَانَ والجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوماً مُجْرِمِينَ﴾.

وكانوا إذا اشتدَّ عليهم البلاء استجاروا بسيدنا موسى ﷺ وطلبوا منه أن يكشف عنهم ما هم فيه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّك بِما عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ولَنُرسِلَنَّ مَعَكَ بَني اسْرائيل﴾.

وحيث أنهم لم يفكروا ولم يتطلَّبوا أن يروا الحق لذلك كانوا إذا كشف عنهم البلاء يعودون لطغيانهم ومناجزتهم لرسول الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرّجْزَ إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ولذلك وحيث أنه لم يبقَ لهم بسبب إعراضهم طريق إلى

[1] سورة الأعراف: الآية (١٢٧-١٢٨).

الإيمان أغرقهم الله تعالى في اليمِّ وأنجى سيدنا موسى ﷺ ومن معه أجمعين. قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[1] .

وقد وصف تعالى مفصلاً كيفية مصرع هؤلاء بقوله الكريم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۞ فَأَرسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۞ وإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۞ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۞ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ فَأَوحَينَا إِلَى مُوسى أَنِ اضْرِب بِعصَاكَ الْبَحْرَ فانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّودِ الْعَظِيمِ ۞ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۞ وَأَنجَينَا مُوسَى وَمَن مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّك لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2].

ولما خرج سيدنا موسى ﷺ بقومه من البحر مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، ومن العجب العجاب أن بني إسرائيل بدلاً من أن يقدّروا نعمة الله عليهم في خَلاصهم من البحر وبدلاً من أن ينكروا على هؤلاء عبادتهم طلبوا من سيدنا موسى ﷺ أن يجعل لهم صنماً يتخذونه إلهاً كأولئك القوم الضالين. قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُم آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَومٌ تَجْهَلُونَ ۞ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُم إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُم وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِن رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ .

---

[1] سورة الأعراف: الآية (١٣٠-١٣٦).

[2] سورة الشعراء: الآية (٥٢-٦٨).

ثم إن سيدنا موسى ﷺ غاب عن قومه وذهب لتلقي الأوامر الإلهية من ربه واستخلف أخاه سيدنا هارون عليه السلام على قومه. قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وقد انتهز غيبة سيدنا موسى عن بني إسرائيل رجلٌ منهم يُدعى السامري سوَّلت له نفسه الملك والسيطرة ودفعه حب الدنيا إلى أن يكون زعيماً في قومه فصنع صنماً ودعاهم إليه.

وقد لاقت دعوته في بني إسرائيل أرضاً خصبة قبولاً وهوىً بأنفسهم وميْلاً لتحقيق الشهوات الدنية، ومالت الأكثرية إلى عبادته وعكفت عليه، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[2].

وقد حذَّرهم سيدنا هارون ﷺ من عبادة العجل وذكَّرهم فاستضعفوه وكادوا يقتلونه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۞ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾[3].

ولـمَّا رجع سيدنا موسى ﷺ ووجدهم على هذا الحال غضب وتأثّر تأثراً شديداً والتفت إلى قومه يؤنّبهم على فعلهم قائلاً:

---

[1] سورة الأعراف: الآية (١٣٨-١٤٢).
[2] سورة الأعراف: الآية (١٤٨).
[3] سورة طه: الآية (٩٠-٩١).

﴿ . .يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُم وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيكُمْ غَضَبٌ مِن رَّبِّكُمْ فأَخْلَفْتُم مَوعِدِي ۞ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوعِدَكَ بِمَلْكِنَا ولكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزاراً مِن زِينَةِ القَومِ فَقَذَفْنَاهَا . . ﴾[1].

والمراد بكلمة ﴿حُمِّلْنَا أَوْزاراً﴾ أي: وقعت في نفوسنا شهوات وميل إلى الدنيا عندما رأينا القوم الذين مررنا عليهم بعد خروجنا من البحر. هنالك التفت سيدنا موسى إلى أخيه هارون قائلاً: ﴿ . .يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيتَ أَمْرِي﴾.

وأخذ بلحية أخيه ورأسه يجرّه إليه من شدّة تأثره فأجابه هارون: ﴿قَالَ يَبْنؤُمَّ لا تأْخُذْ بِلِحيَتِي ولاَ بِرأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسرائيل وَلَمْ تَرْقُبْ قَولِي﴾[2].

وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿ . .قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ القَومَ استَضْعَفُونِي وكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فلا تُشْمِت بِيَ الأَعْدَاءَ ولاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القَومِ الظَّالِمِينَ﴾.

ولمَّا وجد سيدنا موسى أخاه هارون محقّاً في عمله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ولأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ثم التفت إلى قومه قائلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِن رَّبِّهِمْ وذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرِينَ ۞ والذينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

---

[1] سورة طه: الآية (٨٦-٨٧).

[2] سورة طه: الآية (٩٢-٩٤).

[3] سورة الأعراف: الآية (١٥٠-١٥٣).

وسأل السامري عمَّا دعاه إلى ذلك بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ۞ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۞ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾.

ثم خاطب ﷺ قومه بقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[1].

ولعلَّك تقول: ما هو المراد من العجل الذي عبده بنوا إسرائيل في غيبة سيدنا موسى؟.

فأقول: المراد بعبادتهم العجل ماوقع في قلوبهم من حب الدنيا وزينتها العاجلة. فحبُّ الدنيا هو الذي خالط نفوس هؤلاء وأُشرب فيها، فما أن مرُّوا بعد خروجهم من البحر على أولئك القوم الذين عكفوا على أصنام لهم حتى استهوت نفوسهم تلك الأصنام لا بل تلك الزينة وذلك الذهب الذي صنع منه الصنم.

وما أن صنع لهم السامري من حليّهم صنماً حتى خارت نفوسهم له وعكفت عليه متعلِّقة به. فحبُّ المال هو مرض بني إسرائيل منذ قديم الأزمان وهو مرضهم الآن يبيعون كل غالٍ وثمين ويبذلون أعزَّ ما لديهم حتى أعراضهم في سبيل جمع المال.

وذلك أيضاً هو مرض كل معرضٍ عن الله. قال تعالى: ﴿..وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ..﴾[2] أي: بسبب إعراضهم عن الله.

---

[1] سورة طه: الآية (٩٥-٩٨).

[2] سورة البقرة: الآية (٩٣).

والواقع أن النفس لا يمكن أن تخرج محبّة الدنيا منها ولا أن تخلع حبَّ المال من قلبها إلاَّ إذا رأت ما هو أعظم منه، ذلك هو قانون من قوانين النفس؛ لا تزهد في الجميل حتى ترى الأجمل ولا تترك الثمين حتى ترى ما هو أغلى وأثمن.

على أنَّ هذه الرؤية لا تكون ولا يمكن أن تكون إلاَّ بصحبة رجل مؤمن ذي إقبال عظيم على الله من رسول أو نبي أو مرشدٍ مرتبطة نفسه برسول الله ﷺ.

فبهذه الصحبة النفسية تستطيع النفس أن ترى بالنور الإلٓهي المتوارد على رسول الله كمال الله فتحبه وتعشقه ويحصل لها شغف به فتراه أجمل من كل شيء وأحبّ إليها من كل شيء وهنالك تزهد في الدنيا. وفي الحديث القدسي الشريف: «**ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كلَّ شيء وإن فتك فاتك كلُّ شيء وأنا أحبّ إليك من كل شيء**»[1].

فرسول الله إذاً وإن شئت فقل كل مرشد مرتبطة نفسه بنفس رسول الله ﷺ، سراج منير لنفس المصاحب له المقبل بمعيَّته على الله وهذا ما يجعلنا نفهم المقصود من الصلاة على النبي ﷺ فهي صلة نفسك بنفس الرسول ليكون لك سراجاً منيراً ترى به كمال الله تعالى فتحبّه وتعشقه وتزهد فيما سواه، وبحبك هذا لله وإقبالك عليه تستنير بنور منه تعالى فترى الدنيا ودناءتها فتعافها وتزهد فيها. وترى الأعمال العالية التي تقربك من خالقك فتحبها وترغب بها وإن شئت فقل ترى الخير خيراً والشر شراً قال

[1] الزبور، إحياء علوم الدين: الجزء الرابع، ص ٤٦٩ بلفظ (من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا).

تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمشُونَ بِهِ.. ﴾[1].

ونجمل القول فنقول: لا تكون رؤية الكمال الإلٓهي إلاَّ بصحبة السراج المنير وبما أن هذه الصحبة لا تحصل إلاَّ بعد التعظيم والتوقير لذلك كان لزاماً على طالب هذه الصحبة أن يُشعر نفسه بعظيم مقام رسول الله ﷺ ورفيع شأنه وعندئذٍ يحصل الارتباط وتكون الصحبة.

أما إشعار النفس بعظيم مقام رسول الله ﷺ فلا بدَّ له أيضاً من أن تكون النفس متحلّية بخصلة من خصال الكمال التي تحلّت بها نفس الرسول الكريم كالرحمة أو الرأفة أو العلم أو العدل وهذا لا ينال إلاَّ من الله تعالى ذي الكمال. فبِصَلاتنا أي بصلة نفوسنا بخالقها في صلاتنا تشتق شيئاً من الكمال كالرحمة أو الرأفة أو العلم فبما اشتقته من كمال تستطيع أن تقدّر كمال رسول الله فترى أنه أسبق منها في هذا المضمار وأرفع منها في هذه الناحية بكثير فتقدّره وتوقِّره وترتبط به ويكون لها سراجاً منيراً.

والآن بعد أن رأينا قيمة الصلاة وشأنها في تحلية النفس بالكمال نقول: لا تكون الصلاة ولا يكون الإقبال فيها إلاَّ إذا كانت النفس واثقة من عملها الطيب فالعمل الصالح الطيب يقوّي معنوية النفس ويجعل لها ثقة بذاتها فتعلم أن الله راضٍ عنها وتُقبل عليه.

أما العمل الصالح فلا بدَّ أن يسبقه إيمان فكري بالله وهذا الإيمان الفكري إنَّما يكون بالتفكير بالكون. فالتفكير يصل بالنفس إلى تعظيم الخالق والتعظيم يورث الخشية والخشية تستلزم الإستقامة والطاعة لأمر الله. والإستقامة يتلوها الإقبال على الخالق

---

[1] سورة الحديد: الآية (٢٨).

والصلة الوثيقة بنور رسوله؛ به تعالى، وهنالك وفي هذه المرحلة، مرحلة الصلاة الصحيحة تشتق النفس شيئاً من كمال الله فتقدّر أهل الكمال وتصحبهم وبصحبتهم هذه تستنير بنور الله المتوارد على نفوسهم فيكونون لها سراجاً منيراً ترى به كمال الله تعالى فتحبّه وتزهد فيما سواه وتحطُّ رحالها في منازل الإقبال عليه والشهود لجماله وكماله لا تفارقه ولا ترضى عنه ببديل.

فتعظيم الرسول إذاً هو طريق شهود الكمال الإلّهي والوصول إلى منازل الإيمان الحقَّة. وهذا التعظيم يكون بأحد طريقين:

١. طريق عامة يستطيع سلوكها كل إنسان وهي طريق الصلاة التي يشتق بها الإنسان من خالقه كمالاً يقدِّر به الرسول الذي فاقه في الكمال وذلك ما كنَّا بيَّناه آنفاً بصورة مفصَّلة.

٢. طريق خاصة وهي أن يرى الإنسان في الرسول أوالمرشد المرتبطة نفسه بنفس رسول الله ﷺ ناحية من النواحي أو صفة من الصفات فيعجب بها كل الإعجاب كالعلم أوالشجاعة أو الحلم أوالرحمة أو غير ذلك.

وهذه الطريق الخاصة هي التي سلكها سحرة فرعون فمعرفتهم بالسحر جعلتهم لما رأوا من سيدنا موسى ما أبطل سحرهم يخرُّون لمعجزته ساجدين وارتموا بنفوسهم عليه طالبين منه المعرفة. وهنالك كان ﷺ لنفوسهم سراجاً منيراً فرأوا من الحقائق ما رأوا وشاهدوا. لقد شاهدوا الكمال الإلّهي فعشقوه وشاهدوا بنور إيمانهم هذا؛ النار وحال أهلها والجنة وما يلقاه المؤمنون من النعيم فيها فقالوا ما قالوا.

أما بنوا إسرائيل فلم يشاهدوا ولم يروا من ذلك شيئاً.

نعم لم يشاهدوا ما جاء به سيدنا موسى ﷺ من المعجزة، كما قدَّره السحرة كما أنهم لم يصلّوا من قبل الصلاة الصحيحة التي تكتسب فيها النفس الكمال الذي يحصل به تقدير رسول الله، وكل ما في الأمر أنهم صدَّقوا سيدنا موسى ﷺ لما رأوه منه من المعجزات تصديقاً.

والتصديق إن هو لم يقترن بالتعظيم والتوقير لا يغني عن صاحبه شيئاً ولذلك ظلّت نفوسهم ملوَّثة بحب الدنيا مستغرقةً بها فاتخذوا العجل في غيبته إلَهاً فلمَّا عاد إليهم ﷺ وخوَّفهم وحذَّرهم عاقبة عملهم هذا أعلنوا له توبتهم وما استطاعوا أن يخرجوا حب الدنيا من قلوبهم، ولذلك أمرهم على لسان الله تعالى أن يقتلوا أنفسهم تطهيراً لها ممّا علق بها من حبِّ العجل وإن شئت فقل من محبة الدنيا العاجلة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

فقد كان القريب يمسك أعزَّ قريب عليه يذبحه ذبحاً، وبذلك كان الذبيح عندما يرى السكين تكاد تجري على عنقه يزهد في الدنيا وتخرج من قلبه محبّتها وتطهر نفسه من أدرانها فيموت مؤمناً، وكذلك الذابح عندما كان يضع السكين على عنق ابنه أو قريبه يذوب قلبه حزناً وأسفاً فيحصل في نفسه ما حصل للمذبوح من خروج محبّة الدنيا من قلبه وطهارة نفسه منها.

[1] سورة البقرة: الآية (٥٤).

والآن وبعد أن تكلَّمنا ما تكلَّمناه عن حال السحرة وحال بني إسرائيل في الإيمان لا بدَّ لنا من كلمة نبيِّن بها طريق شفاء النفس من شهواتها الدنيئة وأمراضها المعنوية فنقول:

إنَّ شفاء النفس من مرضها وطهارتها وخلاصها ممّا علق بها من أدران محبّة الدنيا يمكن أن يصل إليه الإنسان بأحد طريقين:

١. طريق يحصل على شفاء مؤقت يكون صاحبه معرضاً دوماً للنكسة وعودة المرض.

٢. وطريق يحصل به شفاء دائمي يعقبه رقيّ في الكمال ووصول للتقوى ورؤية الحقائق.

فأما الطريق الأول فهو الذي سلكه بنوا إسرائيل الذين عبدوا العجل وأعني به طريق التصديق الاعتقادي، ذلك التصديق الذي لم يتوصل إليه صاحبه عن طريق تفكيره الشخصي بل عن طريق السماع والوراثة من غيره وشهود المعجزات. وهذا الطريق كما يبدو لنا من قصة بني إسرائيل وإن كان يزرع في قلب صاحبه الخوف من الله، لكنه لا يعرِّف الإنسان بعظمة خالقه وعالي شأنه كما لا يحلّي النفس بالكمال وجُلّ ما يقوم به صاحبه من العبادات منبعث عن الخوف من العقاب، وأعماله التي يقوم بها مجرد تقليد وكثيراً ما تتصارع الشهوة العمياء مع هذا التصديق المبني على الخوف من العقاب وحيث أن نفس هذا الشخص لم ينطبع فيها شيء من الكمال، ولم يتوصَّل إلى معرفة الحقائق ولذلك كثيراً ما تسيطر الشهوة فتعمي صاحبها وتصمُّه وتتغلَّب على خوفه من الله فيقع فيما يقع فيه من المعصية، فإذا هو وقع في الفعل، وخلت نفسه ممّا كان

يشغلها عاد إليه الخوف من الله وعندئذٍ يداويه ربه بما يسوقه له من الشدائد من مرض أو خوف أو نقصٍ في الأموال والأنفس.

وبهذه الشدائد تزهد نفسه فيما علق بها من الشهوات وتطهر من أدران محبة الدنيا وجراثيم الخبث إذ لم يعد لهذه الشهوات محل ولا وجود من هذه الشدة المحيطة، لكنها طهارة آنية وشفاء مؤقّت، فإذا زالت الشدة وارتفع البلاء ولم تسلك النفس طريق التفكير الذي يحصل به الشفاء الدائمي الذي سنتعرّض للبحث عنه فسرعان ما ينبت الجرثوم من جديد وسرعان ما يعود الصراع بين تصديق هذه النفس وبين شهوتها.

ذلك كان حال أكثرية بني إسرائيل طوال صحبتهم لرسولهم ﷺ وهذا حال فريق من الناس في هذه الأيام.. نفوسهم ملأى بالشهوات وعباداتهم مبنية على الخوف مجرّدة من كل وجهة إلى الله ومعدومة التأثير على النفس. وما ذكر الله تعالى لنا قصة بني إسرائيل إلاَّ ليعلّمنا ويحذرنا. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾[1].

والآن وبعد أن انتهينا من ذكر الطريق الأولى التي تحصل بها الطهارة الآنية والشفاء المؤقّت ننتقل للطريق الثانية التي تحصل بها الطهارة الدائمية والشفاء التام والتي يعقبها السير في طريق الكمال فنقول:

١. أول ما يبدأ به الإنسان في هذه الطريق أن يفكر في آيات الكون تفكيراً عميقاً مقروناً بطلب الحقيقة.

---

[1] سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

٢. فإذا هو فكر وواصل التفكير فلا شك أن تفكيره هذا يصل به إلى تعظيم صنعة هذه المخلوقات.

٣. وتعظيم صنعة هذه المخلوقات ينتقل بالنفس إلى عظمة الخالق الصانع الموجد وقدرته.

٤. وتعظيم الخالق يبعث في النفس الخشية منه تعالى.

٥. وتلك الخشية تحمل صاحبها على الاستسلام لله تعالى والاستقامة على أمره.

٦. وبهذه الاستقامة المقرونة بشيء من فعل الخير تتولّد في النفس الثقة برضاء الخالق عنها.

٧. وبهذه الثقة تستطيع النفس أن تحصل لها صلة به تعالى وإن شئت فقل تستطيع أن تُصلِّي.

٨. وبالصلاة تتحلَّى النفس من الله تعالى بحلية الكمال وتخلص من كل ما علق بها من جراثيم الخبث والشهوات الدنيئة.

تلك هي الصلاة الحقيقية وتلك هي طريقها وفوائدها وهذا هو الطريق الذي يستطيع كل إنسان أن يسلكه ليخلص ممّا به من أدران ويُشفى ممّا به من أمراض نفسية خلاصاً تاماً وشفاءً دائمياً.

قال تعالى: ﴿ . .إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. . ﴾[1].

وبعد أن بيَّنا طريق الصلاة الحقيقية وأثرها في شفاء النفس ننتقل بك إلى التقوى فنقول: إذا سلك الإنسان طريق الصلاة وتحلَّت نفسه بالكمال فعند ذلك وبما انطبع

---

[1] سورة العنكبوت: الآية (٤٥).

في نفسه من كمال يستطيع أن يقدّر أهل الكمال الذين فاقوه وسبقوه في هذا المضمار وأعني بهم رسول الله ﷺ أو المرشد المرتبطة نفسه برباط المحبة برسول الله ﷺ.

وبهذا التقدير تحصل الصحبة النفسية بين هذا المؤمن وبين رسول الله أو المرشد المرتبطة نفسه برسول الله. وبهذه الصحبة النفسية لرسول الله تدخل النفس في لُجَّة من النور الإلّهي المتوارد من الله تعالى على رسوله كما تدخل أيضاً النفس المصاحبة للمرشد الصادق في تلك اللّجة من النور الإلّهي المتوارد عليه من الله تعالى عن طريق رسول الله، وهنالك يكون رسول الله ﷺ بذلك النور المتوارد عليه سراجاً منيراً يكشف لهذا المصلِّي من كمال الله تعالى. وبمشاهدة الكمال الإلّهي يعشقه وبهذا العشق للكمال الإلّهي تكتسب نفسه نوراً من الله تعالى يرى به الخير خيراً فيحبّه ويهواه ويرى به الشرَّ شرّاً فيتباعد عنه ويتّقيه بالله. إنَّه يرى بهذا النور الحق فيقوم لنصرته وتأييده والتوصية به كما يرى الباطل فيسعى في دحره وإطفائه والتحذير منه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ ويَجْعَل لَكُم نُوراً تَمْشُونَ بِهِ . . ﴾[1].

على أنَّ هذه التقوى وأعني بها مشاهدة الحقائق بنور الله ليست كلها بدرجة واحدة بل لكل مؤمن مشاهدته ودرجته، والمؤمن الواحد يستطيع أن يتدرَّج في منازل التقوى من درجة إلى درجة أعلى فكلَّما ازداد في العمل الصالح ازدادت نفسه ثقة من رضاء الله عنها وكلَّما ازداد على ربِّه إقبالاً كانت صلاته أحسن من سابقتها وكان بها أعظم صلة بخالقه، وكلَّما حسُنت صلاة المؤمن وتمكَّنت صلته بربِّه ازداد كمالاً، وكلَّما ازداد كمالاً ازداد لرسول الله تقديراً وحبّاً به وارتباطاً، وكلَّما ازداد برسول الله ارتباطاً كان

---

[1] سورة الحديد: الآية (٢٨).

بهذا السراج المنير أكثر مشاهدة لكمال الله، وكلّما ازداد شهوداً للكمال الإلٓهي كان أكثر استنارة بنور الله وبالتالي كانت تقواه أوسع ومشاهدته للحقائق أعظم وأوضح. فهو دوماً في تنقّل من حال إلى حالٍ أرقى ومن درجة إلى درجة أعلى.

وعلى وجه المثال نقول:

هب أن رجلاً وقف عل سفح جبل وعلى مسافة منه غوطة ذات أشجار مختلفة الأنواع، فهذا الرجل لا يستطيع من بعيد أن يميّز من الغوطة سوى أشجارها دون أن يعرف أنواع كل منها.

لكنه كلَّما كان له قرب من هذه الغوطة كان أكثر تمييزاً وإدراكاً فإذا هو دنا أكثر استطاع أن يميِّز أنواع هذه الأشجار فيعرف المشمش من التفاح والجوز من الزيتون فإذا هو دنا أكثر استطاع أن يميّز أنواع التفاح وأجناسه وهكذا زيادة القرب تساعد على زيادة الرؤية والتمييز.

ونستطيع أيضاً أن نوضِّح هذه الحقيقة بمثال آخر فنقول: لنتصور أنَّ رجلاً يحمل بين يديه كتاباً فيه أنواع متنوعة من الخطوط بين كبير وصغير وكان مقبلاً نحو مصباح منير فكلَّما دنا من هذا المصباح ظهرت له خطوط جديدة واستطاع أن يقرأ في هذا الكتاب كتابات أدقّ وأصغر من سابقتها فقراءته وفهمه يتزايد بحسب مشاهدته، ومشاهدته تزداد بحسب قربه واستنارته. تلك هي التقوى في حقيقتها وذلك هو ما توصَّل إليه أصحاب رسول الله ﷺ وما يستطيع أن يتوصَّل إليه كل مؤمن في كل زمان

ومكان وفي أي عصر من العصور وأي جيل من الأجيال. قال تعالى: ﴿وَالذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾[1].

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾[2].

والحمد لله رب العالمين.

[1] سورة العنكبوت: الآية (٦٩).
[2] سورة العنكبوت: الآية (٦).

قصة سيدنا داوود عليه الصلاة والسلام

توالت الأيام على بني إسرائيل من بعد سيدنا موسى ﷺ فنسوا حظّاً ممَّا ذُكِّروا به وضلُّوا سواء السبيل فسلَّط الله عليهم "بختنصر"، وكان طاغية جبَّاراً فسامهم سوء العذاب وأذاقهم ألوان المذلة والهوان وكانوا آلافاً مؤلَّفة فشرَّدهم في الآفاق. قال تعالى مُشيراً إلى هذه الواقعة: ﴿أَلَم تَرَ إِلَى الَّذينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَىالنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[1].

والذي نفهمه من كلمة ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا﴾ أي: أن الله تعالى أذهب شأنهم العالي وما كان لهم من عزٍّ ومكانة فلمَّا أصابهم ما أصابهم ثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى سابق سيرتهم العالية وهنالك أحياهم الله أي أعاد لهم تعالى سالف عزّهم ومكانتهم والله تعالى لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم وهكذا فالله تعالى يسلِّط الكافر الجاحد على المؤمن العاصي تنبيهاً لهذا المؤمن وتحذيراً له من سيره المنحرف فلعلّه إذا أصابته الكروب وأحاطت به الشدائد يتوب ويؤوب، فإذا هو تاب إلى بارئه وأقلع عن ضلاله وعاد إلى طاعته لربه وعالي سيرته ساقه تعالى على ذلك الظالم وأمره بمحاربته ردّاً لهذا الظالم الكافر عمَّا هو فيه من بغي وكفر وضلال وردّاً له إلى طريق ا لهداية والإيمان فتسليطه تعالى الكافر على المؤمن العاصي فضل منه تعالى ومنَّة، وسوقه هذا المؤمن بعد توبته ورجوعه على ذلك الظالم أيضاً فضل منه تعالى ومنّة. وذَلك ما

[1] سورة البقرة: الآية (٢٤٣).

أشارت إليه الآية الكريمة التي أوردناها آنفاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾.

وبعد أن قدَّمنا هذه المقدمة عمَّا أصاب بني إسرائيل بعد سيدنا موسى ﷺ بصورة موجزة نفصِّل الكيفية التي أحيا الله تعالى بها بني إسرائيل فنقول:

لـمَّا أصاب بني إسرائيل ما أصابهم من التشتت في الآفاق وإخراجهم من ديارهم وأبنائهم ثابوا إلى رُشدهم ورجعوا إلى طاعة ربِّهم فجاءوا لنبيٍّ لهم وطلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله.

وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1].

وأنت ترى من خلال هذه الآية أن بني إسرائيل لـمَّا كُتب عليهم القتال تولّوا إلاَّ قليلاً منهم. فمن هم أولئك القليل الذين لم يتولّوا؟.

أقول: أولئك هم الذين آمنوا بربهم إيماناً منبعثاً عن نظر في الكون وتأمل فيه، فأوصلهم إيمانهم هذا إلى تعظيم نبيّهم والارتباط به والإقبال بمعيَّته على الله. وهنالك اشتقت نفوسهم من ربِّها نوراً رأت به أنَّ السعادة والخير كلّه في طاعة الله والاستسلام لأمره فساروا إلى القتال راضين مطمئنين.

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٤٦).

أمَّا الذين اعتقدوا بالله اعتقاداً مبنياً على السمع ولم يؤمنوا بربهم إيماناً منبعثاً عن نظر وتأمل في الكون لـمَّا كتب عليهم القتال تولّوا ولم تطمئن نفوسهم إليه.

وقد استجاب الله دعوة ذلك النبي إذ بعث لبني إسرائيل رجلاً منهم وجعله بآن واحد ملكاً يقودهم في حروبهم ليخلِّصهم من عدوِّهم ورسولاً يرشدهم إلى طريق سعادتهم ويعود بهم إلى سبيل خالقهم، وهذا الملك والرسول هو سيدنا داوود ﷺ قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً . . ﴾.

وقد سمَّت الآية الكريمة سيدنا داوود ﷺ "**بطالوت**" بياناً لذلك الوصف الذي اتصف به سيدنا داوود من الصولة والطوْل الذي سيكون على عدوِّه. وحيث أنَّ سيدنا داوود عليه السلام لم يكن معدوداً في بني إسرائيل من ذوي المال الوفير ولا الجاه العريض وإنَّما كان رجلاً كغيره من الناس بحسب الصورة، لذلك لم تنظر إليه تلك الطائفة الأخيرة التي لم تتوصَّل إلى التقوى نظرة التعظيم والإجلال بل أجابوا نبيّهم بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . . قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنهُ وَلَمْ يُؤتَ سَعَةً مِنَ المَالِ . . ﴾ لقد نظروا لثروته القليلة فلم يقدِّروه، ولم يعظِّموه ولو أنهم فكَّروا من قبل وآمنوا بربِّهم وأقبلوا بنفوسهم على خالقهم لرأوا كمال رسولهم فقدَّروه وعظَّموه. وهكذا لا يعرف الفضل إلاَّ ذووه.. فمن استغرقت نفسه بمحبَّة الدنيا وأعرض عن خالقه تجده يجهل أهل الكمال ولا يعظّم إلاَّ أهل الدنيا ولا يفتتن إلاَّ بهم. ومن أقبل على خالقه واصطبغت نفسه بصبغة الكمال تجده لا يقدِّر إلاَّ أهل الكمال ولا يُعجب ويُفتتن إلاَّ بهم.

ثم إن نبيَّهم خاطبهم بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ . .قَالَ إِنَّ اللهَ اصطفاهُ عَليكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وأنت ترى بحسب ما ورد في هذه الآية الكريمة أن العطاء الإلٰهي ليس مقصوراً على طبقة معيَّنة من النَّاس ولا يشترط في الوصول إليه أن يكون الإنسان غنياً أو ذا جاه وسلطان وإنَّما ينال عطاء الله تعالى كل من شاء من الخلق. فإذا أعدَّ الإنسان نفسه لهذا العطاء الإعداد الصحيح وسلك السبيل الموصلة إليه تفضَّل عليه ربُّه وأعطاه ذلك، لأن الخلق جميعاً خلْقه تعالى لا فرق ولا ميزة بين إنسان وإنسان، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلاَّ بالتقوى، وعطاؤه تعالى واسع يسع الخلق جميعاً.

وهو تعالى حكيم يعطي كلاًّ بحسب ما يراه فيه من صدق وإخلاص.

ثمَّ إن سيدنا داوود ﷺ لـمَّا سار بالجنود للقاء العدو أخبر من معه أن الله تعالى مبتليهم بِنَهَرٍ وطلب منهم أن لا يشربوا منه، أمَّا من اضطره العطش واشتد عليه فعليه ألاَّ يشرب منه إلاَّ غرفة بيده. قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّي وَمَن لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ. . ﴾ ومن البديهي أن هذا الأمر إنما يعود عليهم بالفائدة، فإنَّ الإنسان إذا اشتد عليه الحرُّ وكان عطشاناً عطشاً شديداً وشرب كثيراً سبَّب له ذلك أذى وضرراً في جسمه، وهكذا فكل ما ينهى الله تعالى الإنسان عنه إنما هو لوقايته وحفظه من المهالك. أمّا هؤلاء فبدلاً من أن يذعنوا لوصية ربِّهم ساروا على

[1] سورة البقرة: الآية (٢٤٧).

هوى نفوسهم وانقادوا لشهواتهم وشربوا منه إلاَّ قليلاً منهم. قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿فَشَرِبُوا مِنهُ إلاَّ قَليلاً مِنْهُمْ. . ﴾.

ولذلك وبهذه المخالفة التي صدرت منهم أعرضت نفوسهم عن خالقها وبعدوا عن ربهم بسبب عصيانهم، فما أن رأوا العدو كثيراً في عدده حتى هالهم مشهده ووجدوا أنهم لا يستطيعون منازلته ولا طاقة لهم به. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿. . فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ. . ﴾.

أمَّا الذين أقبلت نفوسهم على ربِّها بسبب طاعتهم فإنما وجدوا أن الأمور كلها بيد الله تعالى وحده وأن النصر من عنده ولذلك لمَّا شاهدوا العدو لم يعبؤوا به وطلبوا من الله تعالى أن يؤيدهم على عدوهم. وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاقُوا الله كَم مِن فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَةً بإذْنِ الله وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَينَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى القَومِ الكَافِرينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإذنِ الله وَقَتَلَ دَاوودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَولاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾[1].

وأنت ترى من خلال هذه الآيات أن الأمور بيد الله تعالى وحده وأنه لا مسيّر ولا إلَه إلاَّ الله. فإذا رجع المؤمن إلى ربه بالطاعة والانقياد وطلب من الله تعالى النصر والتأييد نصره الله وأعانه.

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٤٩-٢٥١).

كما ترى أنه تعالى ذو فضل على العالمين يسوق الكافر على المؤمن العاصي ليتوب ويرجع إلى الحق فإن هو تاب ورجع، ساقه على الكافر وأيّده عليه ونصره وجعل الكافر تحت رعاية المؤمن ليهديه ويدلّه. فهو تعالى يدفع الناس بعضهم ببعض رحمةً بهم وحفظاً لهذا الكون من الفساد وهو يُحمد على كل ما يسوقه لعباده وهو تعالى ذو فضلٍ على العالمين.

وقد استتبَّ الأمر لبني إسرائيل وتسنَّم سيدُنا داوود ﷺ منصب الملك وخضع له بنوا إسرائيل جميعاً كبيرهم وصغيرهم. وكيف لا يخضعون له وقد خلَّصهم من عدوِّهم وأعاد لهم سابق عزّهم وسالف مجدهم ورأوا من تأييد الله له ما رأوا حين انقضَّ ﷺ بذاته يشقُّ صفوف العدو بسيفه والرعب من هيبته تمزق جمعهم كل ممزق، حتى دنا من مَلِكِ الجيوش العدوّة فتفرّق شمْل من يحمونه من مرافقيه مولِّين الدبر، ثم ضرب ملكهم الجبَّار فقصمه وقضى عليه وأراح الناس من عظيم بلائه وبغيه وشروره، وسمعوا منه من البيان والحكمة بالزبور ما سمعوا. قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿اصْبِر عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُود ذَا الأَيْدِ إِنَّه أَوَّابٌ ۝ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيّ وَالإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ۝ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾[2]. والمراد بكلمة (**الجِبَالَ**): كبار القوم ورؤساؤهم فإنَّ الجبل من كل شيء ما عَظُم منه قال تعالى: ﴿. . وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن

---

[1] سورة سبأ: الآية (١٠).
[2] سورة ص: الآية (١٧-٢٠).

جِبَالٍ.. ﴾[1] أي: من سحب عظيمة ويُقال فلان جبل علم أو ذو علم عظيم، وأمَّا الطير فإنما المراد به صغار النَّاس وعامّتهم وهكذا فقد خضع لسيدنا داوود عليه السلام جميع بني إسرائيل وانقادوا له.

ثم إن الله تعالى أراد أن يعرِّفنا في قصة هذا الرسول الكريم بأنَّ النفس البشرية إذا شاهدت الكمال الإلّهي أحبَّته وعشقته وأضحت هذه المشاهدة أحبّ إليها من كل شيء.

غير أنَّ الإنتقال في هذه الوجهة من حال إلى حالٍ أعلى وأرفع والارتقاء في تلك المشاهدة إنما يكون بحسب ما يقدمه الإنسان من الأعمال التي يبذلها في خدمة الخلق، وإنه لا بدَّ من الجمع بين خدمة الخلق والإقبال على الله تعالى بصورة لا يختل معها توازن هاتين الكفّتين، فلا تتغلَّب خدمة الخلق على دوام الوجهة إلى الله كما لا تحول الوجهة إلى الله بين الإنسان وبين القيام بمصالح الخلق. وحيث أن سيدنا داوود ﷺ غلب عليه العشق لربه وجلس مع نفسه يعتكف في المحراب منصرفاً إلى شهود ذلك الكمال الإلّهي، أراد تعالى أن يردّ هذا الرسول إلكمال الكمال فساق له ملكين على صورة رجلين، احتكما لديه في قضية. وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحرَابَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنهُم قَالُوا لاَتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَينَنَا بِالحقّ وَلاَ تُشْطِط وَاهْدِنَا إِلى سَوَاءِ الصّرَاطِ﴾. والمراد بكلمة (**تَسَوَّرُوا**) أي: دخلوا عليه من فوق الجدار، والمحراب هو المكان الذي جلس فيه سيدنا داوود ﷺ مع نفسه متجهاً إلى ربه ليستطيع بما

[1] سورة النور: الآية (٤٣).

يكتسبه من المعرفة بإقباله على ربه أن يحارب الشيطان فيرد وساوسه التي يلقيها في صدور الناس.

ثم إن أحد الخصمين شرح القضية بين يدي سيدنا داوود فذكر له أنَّ أخاه يملك تسعاً وتسعين نعجة أي غنمة، أمَّا هو فلا يملك سوى نعجة واحدة، وقد طلب منه أخوه أن يسمح له بضم هذه النعجة إلى قطيعه وأن يجعلها في كفالته، فلمَّا امتنع ولم يوافق أخاه على رأيه شدّد عليه أخوه في القول ووجَّه إليه اللوم على هذا الامتناع. وقال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

ونظراً لبداهة القضية لدى سيدنا داوود ﷺ وحبّاً في العودة إلى الوجهة إلى الله والتمتُّع بذلك الشهود للكمال الإلهي الذي أخذ بمجامع قلبه وأصبح هوىً ملازماً لنفسه فقد تسرَّع في الحكم قبل أن يسمع من الخصم الآخر وقال للمدَّعي صاحب النعجة ما أشارت إليه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ..﴾: قال له ذلك القول والتفت يريد العودة إلى الوجهة إلى المحبوب الأعظم مبدع كلِّ جمال وفضل وجلال، وهنالك تكلَّم صاحب التسع والتسعين نعجة وبيَّن لسيدنا داوود أنه لا يريد أن يشارك أخاه في نعجته، إنَّما يريد أن يجعلها تحت كفالته ويرعاها له مع قطيعه وبذلك يكون قد خدمه ووفَّر عليه كثيراً من الجهد والوقت في سبيل نعجة واحدة.

ولـمَّا سمع سيدنا داوود ﷺ مقالة الخصم الثاني ووجده محقّاً في طلبه أدرك أنه تسرَّع في حكمه الذي أدلى به للخصم الأول.

ثمَّ إنه لـمَّا عرف أن القضية ليست قضية نعجات وخصوم وأن الخصمين ملكان جاءا إليه بهذه القضية مرسلين من قبل الله تعالى ليعرِّفاه بأن مقام الخلافة إنما يقتضي الجمع بين خدمة الخلق والقيام بمصالحهم، والإقبال على الله والوجهة إليه في آنٍ واحد، لا أن ينصرف العبد إلى الوجهة إلى الله ويترك مصالح الخلق. هنالك لـمَّا ظهرت لهذا الرسول هذه الحقيقة ظنَّ أن الله تعالى إنما أراد بهذه الواقعة أن يبيّن له عدم صلاحه لمقام الخلافة لتقصيره في تأدية مصالح الخلق تمام التأدية وذلك ما نفهمه من الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّما فَتَنَّاهُ﴾ وفتناه أي أظهرنا له عدم صلاحه لهذا المقام، إذ أن الفتنة إنما هي إظهار الطوية ولذلك: ﴿فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ أي: طلب منه الشفاء من هذه السهوة. ﴿وَخرَّ رَاكِعاً﴾ أي: خاضعاً بنفسه لأمر ربه. ﴿وَأَنَابَ﴾ أي: رجع إلى الطريق التي يقتضيها مقام الخلافة فجلس في قضاء المصالح لا تصرفه وجهته عن خدمة الخلق "ولا خدمة الخلق" عن الوجهة إلى الحق. قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿فاسْتَغْفَرَ رَبَّه وَخرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ۞ فغفرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ .

ثم إن الله تعالى خاطبه بقوله الكريم: ﴿يَا داوُود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرض فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحقّ ولاَ تَتَّبعِ الهَوَى فَيُضلَّكَ عَن سَبيلِ اللهِ﴾ أي: لا يكوننَّ هواك في دوام مشاهدتي مانعاً لك من قضاء مصالح خلقي فإن في ذلك حرماناً لهم من حقوقهم

وحرماناً لك من الخير، لأنك إذا وجدت نفسك مقصِّراً في واجبك انقبضت نفسك عني حياءً من تقصيرها وتحوَّلت عن الوجهة إليَّ خجلاً من عدم قيامها بواجبها.

ثم إن الله تعالى تمَّم نصيحته لسيدنا داوود ﷺ بقوله الكريم: ﴿إِنَّ الذينَ يَضِلُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسُوا يَومَ الحِسَابِ﴾[1] أي: وهذا التحوُّل عن الوجهة إلى الله وهذا الخجل من التقصير يجرُّ الإنسان إلى نسيان اليوم الآخر ويوقعه في الأعمال المنحطة وبذلك يصيبه ما يصيبه من العذاب.

ذلك درس ألقاه الله تعالى علينا في قصة سيدنا داوود ﷺ ليرينا تلك المنزلة العالية التي ارتقى إليها ذلك الرسول الكريم وليعرِّفنا أن الكمال الإنساني إنما يكون في الجمع بين خدمة الخلق والإقبال على الحق لتصبوا نفوسنا نحو ذلك المقام العالي وتنزع إليه.

والحمد لله رب العالمين.

---

[1] سورة ص: الآية (٢١-٢٦).

قصة سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام

سيدنا سليمان هو ابن سيدنا داوود عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُود سُلَيمَانَ نِعمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1].

وقد كان سيدنا سليمان ﷺ عوناً لأبيه على نشر الحق وإقامة دعائمه في الأرض كما كان من قبل سيدنا إسماعيل مع أبيه سيدنا إبراهيم عليهما السلام. ونظراً لما يعود به فعل الخير على صاحبه من الشأن العالي والقرب زلفى من خالقه فقد طلب سيدنا سليمان من الله تعالى مُلكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده ليكون ما يناله من ملك عظيم عوناً له على القيام بتأدية رسالة ربه والدعوة إلى سبيل الله على أكمل صورة وأتم وجه. قال تعالى مُشيراً إلى مطلب هذا الرسول الكريم بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنبَغِي لأَحدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾.

وقد استجاب الله تعالى دعوة هذا الرسول الكريم فسخَّر له الريح تحمله من مكان إلى مكان حسبما يود ويريد. قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾. وسخَّر له تعالى أيضاً الشياطين وجعلهم خاضعين لأمره أيضاً. قال تعالى: ﴿والشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاصٍ ۞ وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصفَادِ﴾[2].

وكانت الريح تنقله في برهة الصباح أي في فترة لا تزيد عن ساعة تقريباً مسافة لو أراد أن يمشيها الإنسان على قدميه لاحتاج إلى شهر. قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾. وقد أجرى له تعالى النحاس ذائباً يستعين به على صنع

---

[1] سورة ص: الآية (٣٠).

[2] سورة ص: الآية (٣٥-٣٨).

الأدوات والأسلحة اللازمة قال تعالى: ﴿وأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾. والقطر: النحاس الذائب.

وقد سخَّر تعالى لسيدنا سليمان الجن أيضاً يستعين بهم في صنع الأسلحة وبناء الأبنية، وصنع القدور الكبيرة لطعام الجند. قال تعالى: ﴿وَمِنَ الجِنّ مَن يَعْمَلُ بيْنَ يَديهِ بِإذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيل وَجِفَانٍ كَالجَوابِ وَقُدُورٍ رَاسياتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُود شُكْراً وَقليلٌ مِن عِبَادِيَ الشّكُورُ﴾[1].

والمراد بالمحاريب: الآلات التي يستعملها في محاربة عدوّه. والتماثيل: هي الآلات المماثلة لما يستعمله العدو. والجفان: هي الأواني الكبيرة يوضع بها طعام الجند. والقدور الراسيات: هي الأواني العظيمة الراسية يطبخ فيها طعامهم وهكذا فما من مطلب طلبه هذا الرسول الكريم مما فيه معونة على نشر الحق إلاَّ وأعطاه الله إياه.

وقد ذكر لنا تعالى ما ذكره ليُشجعنا على أن نطلب من فضله العظيم ويرينا أن المؤمن إنَّما يطلب الدنيا لتكون سبباً ووسيلة له إلى اكتساب رضاء الله، ونفسه تطلب ما تطلبه لا لشهوة دنيوية وإنَّما لتتوصَّل إلى أعظم قدر ممكن من فعل الخير، والإنسان الحق هو الذي يجعل دنياه مطية لآخرته ووسيلة إلى فعل المعروف، قال تعالى مُشيراً إلى هذه الناحية: ﴿وَابْتغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرةَ ولاَ تنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِن كمَا أَحْسَنَ اللهُ إليكَ..﴾[2].

---

[1] سورة سبأ: الآية (١٢-١٣).

[2] سورة القصص: الآية (٧٧).

ولعلك تقول: لماذا طلب سيدنا سليمان ﷺ من الله تعالى أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده وخصَّص نفسه بذلك من دون سائر الناس؟.

فأقول: لقد كان الزمن على عهد سيدنا سليمان ﷺ زمناً يتبارى فيه الملوك بما أوتوه من ملك وسلطان ولذلك ومخافة أن ينال الملك رجل مبطل يضلُّ الناس عن الحق ويفتنهم، طلب هذا الرسول الكريم من الله تعالى أن يخصّه بذلك الملك العظيم ولا يهبه لأحد من بعده.

وهكذا فمطلب الرسل دوماً ومطلب كل مؤمن تابع لهم بإحسان إنَّما هو لخير النَّاس ومصلحتهم.

ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿لاَ يَنبَغِي لأَحدٍ مِن بَعْدِي﴾ أي: لا ينبغي لأحد من الملوك المضلِّين.

ولعلَّك تقول أيضاً: مادام سيدنا سليمان ﷺ قد طلب ذلك المطلب لغاية سامية فلماذا لا يطلب سيدنا محمد ﷺ ما طلبه سيدنا سليمان؟.

فأقول: لقد تغيَّر الأمر بعد سيدنا سليمان ﷺ وأصبح الزمن على عهد سيدنا محمد ﷺ زمناً يتبارى فيه البلغاء ويتنافس العظماء ولم يبقَ للملك والسلطان تلك القيمة التي كانت لها من قبل، فبيت شِعرٍ بنظر العرب إذ ذاك أثمن لديهم من قصور كسرى وقيصَر؛ ولذلك لم يعد لهذا المطلب ذلك الشأن وتلك المكانة السابقة. وكانت المعجزة الخالدة لسيدنا محمد ﷺ ذلك القرآن وما فيه من البيان العالي الذي تحدّى به الله تعالى الناس جميعاً في كل عصرمن العصور وبيَّن عجزهم عن الإتيان بمثله مهما تقدم

الزمان وطال. فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

ونعود الآن إلى القصة التي نحن بصددها فنقول: إن أبرز ما في قصة سيدنا سليمان ﷺ وإن شئت فقل الدرس الذي يريد الله تعالى أن يلقيه علينا والعبرة التي يريد أن يسوقها لنا إنَّما تتناول النقاط الثلاثة الآتية:

- أن يكون المؤمن رفيقاً بالحيوان فلا يُحمِّله فوق طاقته حتى ولو كانت غاية المؤمن من عمله نشر الحق والجهاد في سبيل الله إذ الخلق جميعاً مخلوقاته تعالى ويجب أن يعطي كل ذي حقٍّ حقه.
- أمَّا النقطة الثانية فإنما هي ناتجة ومتولِّدة عن النقطة الأولى فإذا كان من المفروض على الإنسان أن يرفق بالحيوان الأعجمي فمن الأولى الرفق بالإنسان وإعطاؤه حقّه وعدم تكليفه بما لا يطيق.
- إنَّ تقصير الإنسان فيما يترتب عليه من واجبات تجاه الآخرين يشعر النفس بتقصيرها بين يدي ربِّها فتنقبض خجلاً وتغضي حياءً منه تعالى وبذلك ينقطع عنها ذلك الإمداد الذي كان يتوارد عليها من ربها وبالتالي يحجب عنها علمها.

---

[1] سورة هود: الآية (١٣).

[2] سورة الإسراء: الآية (٨٨).

والآن وبعد أن أشرنا إلى هذه النقاط الثلاث، نورد لك ما حدث لسيدنا سليمان ﷺ، وما ذكره لنا تعالى بهذا الصدد في كتابه الكريم ليكون لنا منه موعظة وذكرى فنقول:

إنَّ سيدنا سليمان ﷺ بقربه الشديد من خالقه وبصلة نفسه الدائمة بربِّه اشتق منه تعالى الرحمة بالخلق فأُولِعَ بالجهاد في سبيل الله لردِّ الخلْق إلى الحقِّ وإنقاذهم ممَّا هم فيه من الضلال وتوصّلاً لهذه الغاية السامية أخذ سيدنا سليمان يُجري الخيل ويضمِّرها ويمرِّسها على الكرِّ والفر استعداداً للجهاد وما زال منصرفاً لعمله هذا وقد صرفته غايته السامية عن كل شيء حتى أقبل الليل، وإنه لما أتى بها في العشي وجدها منهوكة القوى من كثرة الجري، ثاب إلى نفسه وعرف أنه إنما تجاوز في حبِّ الخير الحدَّ اللازم وزاد عمّا ذكَّره به ربه من إعطاء كل مخلوق حقه فقد أتعب الحيوان وكلَّفه بأكثر ممَّا يطيقه وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُود سُلَيمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۞ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ ۞ فَقَالَ إِنِي أَحْبَبتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالحِجَابِ﴾.

ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ﴾ أي: أتى بالخيل من جريها في الظلام وقت العشي.

أمَّا ما نفهمه من كلمة ﴿فَقَالَ إِنِي أَحْبَبتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: أني تجاوزت في حبِّي لعمل الخير الحدَّ وزدت عما ذكَّرني به ربِّي من إعطاء كلّ مخلوق حقّه وعدم تكليفه بأكثر مما يطيق.

وأمَّا قوله ﴿حَتَّى تَوارَتْ بِالحِجَابِ﴾: نفسه الشريفة فاحتجب عنها علمها إغضاءً وحياءً من حضرة المولى الرحيم بسبب إتعابها الخيل.

ثمَّ إنَّ سيدنا سليمان أمر رجاله بأن يردُّوا عليه الخيل وجعل يمسح لها سوقها وأعناقها ليجفِّف لها عرقها، إذ من المألوف عند الفرسان وساسة الخيْل أنهم يمسحون أعناق الخيل وسوقها ويجفِّفون عرقها المتصبِّب منها بعد جريها ترويحاً لها وعناية بها. وإلى هذه الناحية أشارت الآية الكريمة: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعنَاقِ﴾.

ثم إن سيدنا سليمان ﷺ لمَّا شاهد أنه حمَّل الخيل أكثر مما تطيق ولما وجد أنه بعمله هذا قصَّر في حقِّها بعض التقصير خجل من عمله ووقف خجله هذا حجاباً بينه وبين خالقه، وبما أنَّ العلم الصحيح وشهود الحقائق يكون بنور الله وحيث إنَّ خجل سيدنا سليمان وقف حجاباً بينه وبين ربه لذلك احتجب عنه ذلك العلم حيناً وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيمَانَ وَأَلْقَينَا عَلَى كُرسِيهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾.

وحيث إنَّ الفتنة هي خروج ما كَمُنَ في النفس لذلك يكون ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيمَان﴾ أي: أخرجنا ما كَمُنَ في نفس سليمان من حبِّ الخير، وأظهرنا للعيان ما شغف به قلب هذا الرسول من التفاني في خدمة الخلق. أمَّا كلمة ﴿وَأَلْقَينَا على كُرسِيهِ جَسَداً﴾ أي: سترنا عليه علمه لأن من معاني الكرسي في اللغة: العلم والمشاهدة ويثبت لك هذا المعنى قوله تعالى: ﴿. .وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَواتِ وَ

الأَرضَ.. ﴾[1] أي: أحاط علمه تعالى بما تحتاج أن تقوم به السموات والأرض. وإذاً فكل ما يقع عليه نظر نفسك من الحقائق إنَّما هو كرسي لهذه النفس أمّا الجسد فهو كل ما حلَّ في مكانه وأخذ موضعاً له فيه، وبسبب الخجل الذي حلَّ في نفس سيدنا سليمان ﷺ أصبح مستقراً فيها وساتراً لعلمه.

أقول: وهذه المعاني إنَّما هي حقائق نفسية يؤيدها شعور الإنسان النفسي فمن طبيعة النفس أن تغضي حياءً عند شعورها بالتقصير وأن يصبح خجلها ستراً بينها وبين زيد من الناس إذا هي قصَّرت في حقِّه وذلك الحال ذاته إنَّما يقع في نفس المؤمن إذا آنس من نفسه تقصيراً في جنب الله فيتوقف انطلاق نفسه عن العروج في صلاته من حال إلى حالٍ أعلى وأرقى وأبقى، فيتوقف عن انطلاقه النفسي في بحور أسماء الله العُلى، إذ الصلاة معراج المؤمن، وهذا أمر معروف عند كل مؤمن بالبداهة فلا يحتاج إلى زيادة في الشرح والتوضيح. ذلك هو ما وقع في نفس سيدنا سليمان ﷺ، وما أن آنس في نفسه توقف الحال عند مشاهدة عليَّةٍ واحدة ولم تعرج نفسه في العلوم الربانية تصاعدياً أسمى حتى رجع إلى ربِّه معترفاً. وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾. وهكذا فالمؤمن سرعان ما يؤوب إلى ربه وينيب.

ثم إن سيدنا سليمان ﷺ طلب من الله تعالى أن يجعله دوماً قائماً في حقوق الخلق جميعاً فلا يعود بعد يومه هذا يقصِّر في حقِّ مخلوق من المخلوقات. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي: اشفني وارفع من نفسي هذا الحال الذي وقع مني فلا أعود أقصِّر

[1] سورة البقرة: الآية (٢٥٥).

في حقٍّ مخلوق حبّاً بمخلوق آخر ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنبَغِي لأَحدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾[1].

وتلك هي مراحل تدرَّج فيها سيدنا سليمان ﷺ في طريق الكمال فمن كمال إلى أكمل ومن حال إلى حال أرقى وأرفع وتلك هي عظات بالغة تتجلَّى فيها للإنسان العدالة الإلّهية بأجلى مظاهرها ليعلم المؤمن أن الله تعالى حكمٌ عدلٌ وأن الخلْق جميعاً عباده. فمن أراد أن يظل قريباً دوماً من خالقه فلا يقصِّر في حق مخلوق من المخلوقات مهما كانت الغاية عالية ومهما كان القصد شريفاً سامياً قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضرِبُها لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾[2].

وقبل أن نختم قصة سيدنا سليمان، لا بدَّ لنا من أن نتكلَّم عن قصته ﷺ مع الملكة بلقيس. هذه القصة التي تبيِّن لنا بجلاء أن هذا الرسول ﷺ لم يطلب ما طلبه من الملك العظيم حبّاً بالدنيا وزينتها ولا رغبة في عزِّها وسلطانها إنَّما طلب الملك حبّاً في فعل المعروف وعمل الخير لينال رضاء الله تعالى في تعريف خلقه به وليتقرَّب زلفى إلى ربِّه بردِّ عباده إلى طريق الحق وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وتفصيلاً لهذه الناحية لا بدَّ لنا من أن نذكر الآيات الكريمة الواردة بهذا الخصوص والتي جاءت بها سورة النمل متكلِّمة عن هذا الرسول الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الحَمْدُ للهِ الَّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ ۞ وَوَرِثَ سُلَيمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ

---

[1] سورة ص: الآية (٣٠-٣٥).
[2] سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

الفَضْلُ المُبِينُ ۞ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنّ والإنسِ وَالطَّيرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّملِ قَالتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم لا يَحْطِمَنَّكُم سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۞ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَولِهَا وَقَالَ رَبّ أَوْزِعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمتَ عَلَيّ وعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرضَاهُ وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالحِينَ ۞ وَتَفَقَّدَ الطَّيرَ فَقَالَ مَالِي لا أَرى الهُدهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ ۞ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّه أَو لَيأْتِيَنّي بِسُلطانٍ مبينٍ ۞ فَمَكَثَ غيرَ بَعيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِط بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنبأٍ يَقِينٍ ۞ إِني وَجَدتُّ امْرأَةً تَمْلِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِن كُلّ شيءٍ وَلَهَا عَرشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدْتُّهَا وَقومَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّن لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَصَدَّهُم عَنِ السَّبيلِ فَهُم لا يَهْتَدُونَ ۞ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمواتِ وَالأَرضِ وَيعلمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعلِنُونَ ۞ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ ۞ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِن الكَاذِبِينَ ۞ اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيهِم ثُمَّ تَولَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾[1].

ولما ألقي الكتاب إلى تلك الملكة وتبيَّنت ما فيه جمعت ملأها وعرَّفتهم بالأمر. قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَؤُا إِني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۞ إِنَّه مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّه بِسمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمري مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ ۞ قَالُوا نَحْنُ أُولوا قُوةٍ وَأُولوا بَأسٍ شَدِيدٍ وَالأَمرُ إِلَيكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۞ قَالَتْ إِنَّ المُلوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهلِهَا أَذِلَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ وَإِنّي مُرْسِلَةٌ إِلَيهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ۞ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيمَانَ

---

[1] سورة النمل: الآية (١٥-٢٨).

قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۞ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

فلمَّا رجع المرسل: وبيَّن لها وضع سيدنا سليمان ﷺ تجاه هديتها وذكر لها مقالته أزمعت على أن تأتي إليه بذاتها وقد عرَّفته بحضورها ولـمَّا بلغ سيدنا سليمان أنها قادمة إليه التفت إلى من حوله طالباً منهم أن يأتوه بعرشها. ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

وأنت ترى من هاتين الآيتين الأخيرتين كيف أنَّ العفريت والمراد به الكافر المعفَّرة نفسه ببعدها عن ربِّها عرض على سيدنا سليمان ﷺ أن يأتيه بالعرش قبل أن يقوم من مقامه وكيف أن المؤمن الذي عنده علم من الكتاب استطاع أن يأتيه به من اليمن بمدَّة لا تزيد عن لمح البصر.

إن هذه النقطة تبيِّن لنا أنَّ المؤمن مهما كان نوعه يتفوَّق على الكافر وهو دوماً أشدُّ قوة وأعظم علماً ومعرفة، إذ المؤمن في كل أمرٍ رأس، بل وفوق كل كافر.

ولما رأى سيدنا سليمان ﷺ العرش مستقراً عنده شكر الله تعالى على هذه النعمة كما رأينا من قبل في الآية.

---

[1] سورة النمل: الآية (٢٩-٤٠).

ثمَّ إنَّه أراد أن يمتحن ذكاء هذه الملكة ويسبر غور تفكيرها لأن المفكِّر صافي الذهن يستطيع أن يتبيَّن الحق ومن المأمول منه أن يذعن للحق ويرضخ إليه أمَّا الخامل الفكر البليد الذهن فأمره مشكل ودلالته عسيرة ومع ذلك فهو إذا رأى الحق لا يستطيع أن يقطع في هذا السبيل مسافات واسعة لصغر دائرته وضيق مجال تفكيره ولذلك أمر سيدنا سليمان ﷺ بأن يغيِّروا لها عرشها بعض التغيير، قال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۞ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[1]. هنالك طمع سيدنا سليمان في هدايتها فأمرها بأن تدخل الصرح، والصرح: موضع أرضه من زجاج متقن الصنعه، شفَّاف يشفُّ حتى يصف ما وراءه ولشدة نقائه وصفائه لا تراه، بل تلمسه لمساً. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾.

أمَّا هي فلما رأت الصرح ونظرت إلى أرضه حسبتها لشدَّة صفائها ودقَّة صنعها ماءً وكشفت عن ساقيها لئلا تبتل ثيابها، قال تعالى: ﴿. . فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

وفي هذه اللحظة استعظمت هذه الملكة التي أوتيت من كل شيء ما أوتيه سيدنا سليمان ﷺ من الملك العظيم واستصغرت ملكها واحتقرت نفسها بجانبه ونظرت إلى سيدنا سليمان نظرة إكبار وإجلال وهنالك وبهذه النظرة وبهذا التعظيم وإن شئت فقل بإقبال نفسها على نفس هذا الرسول العالية شهدت الحق وعاينته فكانت نفسه لنفسها سراجاً مُنيراً رأت به عظمة خالقها وكمالات ربها فاستسلمت لربها طائعة

---

[1] سورة النمل: الآية (٤١-٤٢). [2] سورة النمل: الآية (٤٤).

مذعنة، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ العَالَمينَ﴾[2] .

ومن هنا يتبيَّن لنا أن سيدنا سليمان ﷺ لم يطلب ذلك الملك العظيم إلاَّ ليكون وسيلة له إلى فعل الخير وردِّ الخلْق إلى الحق؛ إلى ينبوع كل خير وجمال وجلال جلَّ جلاله وتشاهقت عظمته وتسامت لنا محبته تعالى. كما يتبيَّن لنا أن رؤية الحق وبلوغ منازل الإيمان الصحيح لا تكون إلاَّ بتعظيم أهل الحق وإكبارهم وقد أشار تعالى إلى هذا المبدأ الثابت في قصة سيدنا موسى ﷺ مع السَّحرة وفي مواقع أخرى وصرَّح به في حقِّ سيدنا محمَّد ﷺ فقال تعالى: ﴿ . .فَالَّذينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[1] .

وآخر ما سنتعرَّض إليه في قصة سيدنا سليمان أمر موته ﷺ فقد ذكر لنا تعالى في معرض الكلام عن هذا الرسول ﷺ ما يُشير إلى بقاء أجساد الأنبياء بعد وفاتهم وعدم فنائهم في قبورهم وتفصيل ذلك أنَّ سيدنا سليمان ﷺ لمَّا جاءه الموت كان جالساً مطرقاً برأسه متكئاً على منسأته "أي عصاه".. فلمَّا قُبِضَ "أي مات" ظلَّ على هذا الحال حيناً وكان قد كلَّف الجن أن يقوموا بأعمال فاستمروا ينجزونها وهم لا يدرون بموته.

وقد مضى على هذا الرسول حين من الدهر وهو على هيئة الجالس يحسبه الرائي نائماً أو مطرقاً مفكِّراً ولهيبته في القلوب ما كان يجرؤ أحد على إيقاظه فلما تقادم الزمن عليه جعلت دابة الأرض تأكل عصاه إلى أن أصبحت ضعيفة واهية لا تقوى على حمل

---

[1] سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

جسده هنالك خرَّ ﷺ على الأرض وظهر أمر موته وتُشير إلى ذلك الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَينَا عَلَيهِ المَوتَ مَادَلَّهُم عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرضِ تَأكُلُ مِنسأَتَهُ﴾.

وبهذه الواقعة ظهرت حقيقة الجن للناس فتبيَّن أنهم لا يعلمون الغيب ولو أنهم يعلمون الغيب لما لبثوا يقومون بما كلَّفهم به سيدنا سليمان ﷺ من الأعمال الشاقَّة رجاء أن يثوبوا إلى رشدهم وينقادوا إليه فيهتدون بهديه ويسيرون في طريق الحق. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذابِ المُهِينِ﴾[1].

ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿تَبَيَّنَتِ الجِنُّ﴾ أي: ظهر أمر الجن وانكشفت حقيقة هذا النوع من المخلوقات للناس فعرفوا أن الجن لا يعلمون الغيب وأنهم كغيرهم من المخلوقات وبهذا يريد تعالى أن ينبِّهنا إلى عدم الاعتزاز بقول السَّحرة والمنجِّمين الذين يدَّعون معرفة الغيب بواسطة الجن، وهكذا فلا الجن ولا الإنس يعلمون الغيب حتى ولا الأنبياء والمرسلون. قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَواتِ والأَرضِ الغَيْبَ إلاَّ اللهُ..﴾[2].

وقد أمر تعالى رسوله الكريم أن يعلن هذه الحقيقة للناس فقال تعالى: ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنفسِي نَفْعاً ولاَ ضرّاً إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيبَ لاسْتَكْثَرتُ مِنَ الخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِن أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنونَ﴾[3].

والحمد لله ربِّ العالمين

---

[1] سورة سبأ: الآية (١٤).
[2] سورة النمل: الآية (٦٥).
[3] سورة الأعراف: الآية (١٨٨).

قصة سيدنا زكريا ويحيى عليهما الصلاة و السلام

سيأتي معنا في قصة سيدنا عيسى ﷺ أنَّ علماء بني إسرائيل لـمَّا اقترعوا أن يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم جعل الله تعالى القرعة تقع على سيدنا زكريا ﷺ وكفَّله تعالى تلك البنت الصغيرة الناشئة على عبادة ربها، ولو أنَّ أولئك العلماء عرفوا مقام سيدنا زكريا في النبوة وعظيم معرفته بالله تعالى لما تجرَّأ أحد منهم على أن ينازعه في أمر تربيتها لكن الله تعالى، وهو العليم بحال كل إنسان يجعل الصادق كفيلاً على الصادق ويولي الأخيار على الأخيار، إليه يرجع الأمر كله وهو يتولى الصالحين.

فالله تعالى فتح على سيدتنا مريم فتحاً عظيماً وكان سيدنا زكريا ﷺ كلما دخل عليها المحراب وجد عندها من العلم والمعرفة بالله رزقاً جديداً فكان يعجب مما يسمعه منها ويسألها يا مريم أنَّى لك هذا فتقول هو من عند الله إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك لما رأى سيدنا زكريا ما في الولد الصالح من الخير وحيث أنه خاف على أتباعه من بعد موته أن ينحرفوا عن طريق الحق ويضلوا سواء السبيل لذلك طلب من الله تعالى أن يهبه من لدنه ولياً أي ولداً صالحاً موالياً له يرثه في مقام الدلالة على الله ويرث النبوة السارية في آل يعقوب، فيقوم مقام المرشد لأولئك الأتباع.

وكذلك أهل الإيمان والمعرفة إنَّما يطلبون الولد لمثل هذه الغاية السامية قال تعالى مُشيراً إلى قصة سيدنا زكريا ﷺ في مطلبه هذا بقوله الكريم: ﴿..كُلَّما دَخَلَ عَلَيها زَكَرِيَّا المِحرابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ

يرزق من يشاء بغير حساب ۞ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾[1].

وقال تعالى في مطلع سورة مريم: ﴿كهيعص ۞ ذكر رحمت ربك عبده زكريا ۞ إذ نادى ربه نداءً خفياً ۞ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ۞ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً ۞ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴾[2].

وقد سمع الله تعالى ذلك النداء الخفي الصادر من تلك النفس المؤمنة بربِّها واستجاب تلك الدعوة المنبعثة من قلبٍ مؤمن موقن بأن الله تعالى لا بدَّ مجيب دعاءه فليس على الله بعزيز أن يهبه ولداً ولو أن امرأته كانت عاقراً ولو أنه اشتعل رأسه شيباً وبلغ من الكبر عتياً، ولذلك أرسل الله الملائكة تُبشِّرُهُ بيحيي وأشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾[3].

كما أشار تعالى إلى ذلك في موضع آخر من القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً، قال رب أنى يكون لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾[4].

وقد سأل سيدنا زكريا ربه بقوله: ﴿رب أنى يكون لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ لا سؤال المستعجب المستغرب فإن الأنبياء الذين عرفوا عظمة

---

[1] سورة آل عمران: الآية (٣٧-٣٨).

[2] سورة مريم: الآية (١-٦).

[3] سورة آل عمران: الآية (٣٩).

[4] سورة مريم: الآية (٧-٨).

الله تعالى وقدرته على كل شيء، لا يستبعدون على الله شيئاً، بل إنما كان سؤاله كسؤال سيدنا ابراهيم ﷺ لمَّا قال: ﴿..ربّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: بلى يا رب آمنت بذلك إيماناً غيبياً غير أني أُريد بسؤالي هذا أن تريني الكيفية التي يكون بها الإحياء فيكون إيماني بهذا إيماناً شهودياً هنالك أجابه الله تعالى بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله عزَّ وجل: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِن الطَّيرِ فَصُرْهُنَّ إليكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَم أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وهكذا فقد طلب سيدنا زكريا من ربِّه أن يعرِّفه بالكيفية أي الطريق التي سيكون بها الولد فقال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ أي: أريد بسؤالي هذا أن أعرف الكيفية التي سيكون بها الولد فأجابه الله تعالى بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي: مع هذا الحال الراهن الذي أنت وزوجك فيه سيكون لك الولد فمن امرأتك هذه ومنك أنت وقد بلغت هذا السن.

ثمَّ فصَّل تعالى ذلك بقوله الكريم: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾[2].

هنالك طلب سيدنا زكريا ﷺ من ربِّه أن يجعل له آية أي إشارة ودليلاً يتعرف به إلى الوقت الذي سيهبه الله تعالى فيه ذلك الغلام. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً..﴾[3].

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

[2] سورة مريم: الآية (٩).

[3] سورة آل عمران: الآية (٤١).

وبالآية الثانية: ﴿..قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِياً﴾: وفي يوم وجد سيدنا زكريا نفسه في حال لا يستطيع معه الكلام. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِياً﴾[1].

وقد نفَّذ الله تعالى وعده لنبيه فأصلح له زوجه ووهبه يحيى. قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيرُ الوَارِثِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبنا لهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُم كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لنا خَاشِعِينَ﴾[2].

وقد أمر تعالى سيدنا يحيى أن يأخذ الكتاب أي التوراة بقوة بأن يقوم بتبليغها على حقيقتها مبيِّناً شذوذ الناس عنها بجرأة لا يخشى في الحق لومة لائم، وآتاه الله تعالى الحكم صبياً، أي علَّمه كيفية وضع كل حكم من أحكام التوراة في موضعه شرحاً وتبياناً وإيضاحاً لحكمته العليّة. فقال تعالى: ﴿يَا يَحْيى خُذِ الكِتَابَ بِقُوةٍ وَآتَيناهُ الحُكْمَ صَبِيّاً﴾.

ثمَّ بيَّن لنا تعالى ما انطوى عليه قلب هذا النبي الكريم من الحنان وما تحلَّت به نفسه من الزكاة أي الطهارة وبيَّن تعالى أنَّ الحنان والطهارة النفسية إِنَّما يشتقها العبد من الله تعالى فقال: ﴿وَحَنَاناً مِن لدُنَّا وَزَكَاةً﴾.

ثم بيَّن لنا تعالى أن التقوى أي أن الاستنارة بنور الله تعالى هي الأصل لا بل هي الطريق الموصلة إلى الحنان والزكاة فقال تعالى: ﴿وَكَانَ تَقِياً﴾ ثم أتبع ذلك بقوله الكريم: ﴿وَبرّاً بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً﴾[3].

---

[1] سورة مريم: الآية (١٠-١١).

[2] سورة الأنبياء: الآية (٨٩-٩٠).

[3] سورة مريم: الآية (١٢-١٤).

والآن بعد أن بيَّنا قصة سيدنا زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام لا بدَّ وأن نتعرَّض إلى نقطة هامة كثرت فيها الأقاويل الباطلة فقال الذين لم يدققوا في كلام الله ولم يعطوه حقَّه من التدبُّر والإمعان أن زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام قتلهما اليهود وذكروا بهذا الخصوص قصة ملفَّقة وكان مما قالوه أن اليهود لما جاءهم سيدنا يحيى بالبيّنات عارضوه وادَّعوا أن ما جاء به مخالف لما عرفوه ولذلك صمَّموا على قتله، ولـمَّا قتلوه فرَّ أبوه سيدنا زكريا ﷺ مستخفياً وفي طريقه مرَّ على شجرة عظيمة وقد أرادت الشجرة أن تؤويه إليها فانشقَّ جذعها له وما أن أوى إلى الجذع حتى انطبق عليه وأخفاه غير أنَّ الشيطان اجتذب طرف ثوب سيدنا زكريا وبذلك استطاع الخصوم أن يعرفوا مكانه فنشروا الجذع نشراً ولـمَّا وصل المنشار إلى أمِّ رأس سيدنا زكريا تأوَّه ألماً فناداه ربه يا زكريا لئن تأوَّهت ثانيةً لأرفعنَّ اسمك من ديوان النُبوة.

والآن وبعد أن عرضنا موجزاً لهذه القصة الموضوعة نقول: إنَّ نظرة واحدة إلى هذه القصة تشهد ببطلانها من وجوه عديدة وبقليل من التفكير نستطيع دحضها، ونستطيع الآن أن نثبت أنَّ سيدنا يحيى ﷺ لم تقتله اليهود لنتوصَّل من ذلك إلى نقض القصة وبالتالي إلى ردِّ ذلك الزعم القائل بنشر سيدنا زكريا ﷺ.

إنَّ التصديق بأن سيدنا يحيى ﷺ قتله اليهود فيه مواضع لاعتراضات كثيرة يكفي أن نُورد واحداً منها فنقول: لقائل أن يقول إذا كان الله تعالى عليماً فكيف وعد سيدنا زكريا بأن يهبه وارثاً لمقامه في الدلالة على الله ثم جاء اليهود وقتلوا سيدنا يحيى في حياة أبيه؟. وإذا كان تعالى قديراً فكيف استطاع اليهود بقتلهم سيدنا يحيى أن يحولوا دون تنفيذ أمر الله تعالى؟.

وهكذا فالتسليم بهذه القصة معناه أن الله تعالى ليس بعليم ولا قدير، وبما أن الله تعالى عليم لا يعزب عن علمه شيء، قدير لا تحول إرادة دون إرادته فهذه القصة موضوعة لا أصل لها باطلة من أساسها وقد شهد القرآن الكريم بكذبها، فقد ذكر لنا تعالى في معرض الكلام عن سيدنا يحيى بما أشارت إليه الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوةٍ وآتَينَاهُ الحُكمَ صَبيّاً ۞ وَحَنَاناً مِن لدُنَّا وَزَكَاةً وكَانَ تَقِياً ۞ وَبَرّاً بِوالِدَيهِ وَلَمْ يَكُن جَبّاراً عَصِيّاً ۞ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يومَ وُلِدَ وَيَومَ يَمُوتُ وَيَومَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾[1].

وحيث أنَّ السلام من الله تعالى هو الأمان وإذا كان الله تعالى ذكر في كتابه الكريم أنَّ السلام على يحيي يوم يموت فمعنى ذلك أنه لم يجرؤ أحد على التعرُّض له وهكذا فقد عاش سيدنا يحيى بعد أبيه وقام مقام المرشد لأتباع أبيه فكان دليلاً لهم على الله وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

والحمد لله رب العالمين

---

[1] سورة مريم: الآية (١٢-١٥).

قصة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام

لا بدَّ لنا قبل البدء بقصة سيدنا عيسى ﷺ من أن نقدِّم الكلمة التالية فنقول:
خلق الله الإنسان مركباً من عناصر ثلاثة: جسد ونفس وروح.

فالجسد: هو هذا الجسم المادي المؤلف من لحم وعظم وعروق وأعصاب ودم، والجسم تنتابه أعراض كثيرة من قوة وضعف وصحة ومرض ونحول وسمن وفتوة وهرم.

أمَّا النفس: فهي تلك الذات المعنوية الشاعرة المستقرة في الصدر والتي تسري أشعتها في الأعصاب المنتشرة في سائر أنحاء الجسم.. والنفس هي ذات الإدراك والحس وصاحبة الوجدان والشعور فهي التي تتصور وتتخيل وتحفظ وتتذكَّر وتعقل وهي التي ترضى وتغضب وتسرُّ وتحزن وتتألَّم وتتنعَّم، ما هذا الجسد إلاَّ لباس النفس وثوبها والجسد بالنسبة إلى النفس أشبه بقفص بالنسبة إلى العصفور، وما العين والأُذن وسائر الجوارح إلاَّ نوافذ تطلُّ منها النفس على العالم الخارجي فعن طريق الأذن تسمع وبالعين تُبصر ومن حفرة الأنف تشمُّ وبواسطة اليد والجلد تلمس وتحسُّ وباللسان تتذوَّق. والجسد مطيَّة النفس ومركبها، وهو خادمها الذي به تُنفِّذ رغائبها فبالرِجل تمشي إلى مكان قصدها، وباليد تكسب الأعمال التي عزمت عليها وباللسان تُعبِّر عما يجول في خاطرها.

أما الروح: فهي ذلك النور الإلٓهي الساري في الجسد يبعث فيه الحياة ويحفظه من أن تمتد له يد الانحلال والفناء فبواسطتها تدور أجهزته ويحصل فيه ما يحصل من تمثيل وامتصاص وهضم واحتراقات وتغذية وكبر ونماء ولولا الروح لتوقَّف الجسد عن الحركة ولأصبح خامداً لا حراك فيه شأنه شأن سائر الجمادات.

نظام خروج الإنسان إلى هذا العالم:

وقد كان خلق الأنفس قبل خلق الأجساد بما لا يعلمه إلاَّ الله من عدد السنين قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى..﴾[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّموات وَالأَرْضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[2].

فلما أراد تعالى أن يظهر النوع الإنساني لهذا العالم عالم الصور والأجساد جعل لذلك قانوناً وسنة فجعل لكل إنسان والدين: أب وأم، يحمل الأب في ظهره أنفس أبنائه وجميع نفوس ذريته، ثمَّ ينتقل الإبن من الأب إلى رحم أمه منطوية نفسه في ذلك الحوين الذي لا تدركه العين المجردة لدقته وصغر جرمه ومايزال مستقراً في الرحم يتغذّى وينمو ويتخلَّق يوماً بعد يوم حتى يصبح إنساناً سوياً.

وهكذا فالناس كلهم كانوا في ظهر أبيهم آدم ﷺ ومنه نسلوا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ مِن سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾[3].

وقد شذَّ عن ذلك النظام الذي بموجبه توالد البشر وجاؤوا إلى هذه الدنيا سيدنا آدم ﷺ، فقد خلق الله تعالى جسد آدم من تراب ثم أرسل نفس سيدنا آدم ﷺ محمولة

---

[1] سورة الأعراف: الآية (١٧٢).
[2] سورة الأحزاب: الآية (٧٢).
[3] سورة المؤمنون: الآية (١٢-١٤).

بواسطة الملك إلى جسدها من غير أن يكون ذلك عن طريق أب. وكذلك كان خلق سيدنا عيسى بن مريم ﷺ فقد أرسل الله نفس سيدنا عيسى إلى بطن أمه بواسطة الملك من غير أن يتوسط أب في نقل هذه النفس الكريمة إليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وقد فصَّل لنا تعالى قصة حمل أم سيدنا عيسى به، وبيَّن لنا في هذه القصة أنه لا بدَّ وأن يجزي الصادق بصدقه رجلاً كان أو امرأة فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمرانَ عَلَى العَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

والمراد بكلمة ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: أنَّ البشر جميعاً متماثلون في الأصل فهم يتوالدون ويتناسلون بعضهم من بعض لا ميزة لأحد على آخر في هذه الناحية. أمَّا كلمة ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإنما تُبين سبب التمايز والإختلاف، فإذا كان البشر في الأصل متماثلين لا فرق ولا ميزة لأحد على أحد من جهة النسب والحسب فهذا التمايز إنَّما يحصل بينهم بحسب الصدق والنية العالية فالله تعالى سميع لما يتطلَّبه كلُّ إنسان عليم بحاله وصدق نفسه وكل من صدق مع ربِّه في طلب الحق والكمال فلا بدَّ أن يجزيه الله بصدقه.

ثمَّ ذكر لنا تعالى مثالاً على أهل الصدق فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ اِمْرأَتُ عِمرَانَ رَبِّ إِنِي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطِنِي مُحَرَّرا﴾ أي: عزمت أن أجعل هذا الولد الذي أنا حاملة به محرراً أي: خالصاً للقيام بخدمتك وذلك مما تعني به أن يكون ولدها قائماً بفعل الإحسان والخير تجاه عباد الله فلعل الله تعالى يقبل دعاءها ويجعل ولدها مرشداً يدل

[1] سورة آل عمران: الآية (٥٩).

الناس على الله ويعرِّفهم به ثم تمت داعية بقولها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنّي إِنَّك أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ أي: سميع لقولي عليم بحالي وصدقي في مطلبي.

ثمَّ إنها لـمَّا ولدت وضعت مريم عليها السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْها قَالَت رَبّ إِنِي وَضَعْتُها أُنثى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ولَيسَ الذَّكَرُ كالأُنثى﴾ أي: أنها كانت تتطلب أن يكون مولودها ذكراً ليستطيع أن يقوم بهذه المهمة العالية في الإرشاد والدلالة على الله ثمَّ تابعت القول بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وإِنّي سَمَّيتُها مَرْيَمَ وإِنِي أُعيذُهَا بِكَ وذُرِّيَتها مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وقد استجاب الله دعوة الأم الصادقة فأنبت هذه البنت نباتاً حسناً قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِّيا﴾ أي: جعله ﷺ ولي تربيتها ونشأت هذه البنت الصغيرة، وما أن بدأت تعي وتميّز حتى أُفعِمَ قلبُها بمحبة الله والإقبال عليه شأنها في ذلك شأن كل ولي مقرَّب إلى الله. وكان الله تعالى يفيض عليها بإقبالها عليه من العلم والمعرفة ما يفيضه على قلوب عباده المؤمنين المقبلين وكان سيدنا زكريا ﷺ كلما دخل عليها المحراب أي مكان خلوتها للعبادة في محاربتها للشيطان وجد عندها رزقاً أي علماً ومعرفة وبياناً عن كمال الله فيعجب بذلك ويسألها يا مريم من أين جئت بهذا العلم وهذه المعرفة العالية فتقول هو من عند الله، قال تعالى مبيناً ذلك بقوله الكريم: ﴿كلَّما دَخَلَ عَلَيها زَكَرِّيا المِحرَابَ وَجَدَ عِندَها رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَم أَنَّى لَكِ هَذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغيرِ حِسَابٍ﴾.

وهي تريد بكلمة ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرزق كل صادق، وإني صدقت مع ربِّي في طلب الحق فأكرمني بما أكرمني به.

والمراد بقولها: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: إنَّ الأمر لا يحتاج إلاَّ إلى الصدق فلما رأى سيدنا زكريا ﷺ ذلك وسمع منها ما سمع طلب من الله تعالى أن يرزقه ولداً صالحاً يرثه من بعده فيكون مرشداً وكان ﷺ لا ولد له فدعا ربه بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[1].

وهكذا فمسرى الآية يبين لنا أن الرزق الذي كان يجده سيدنا زكريا ﷺ عند هذه البنت في المحراب ليس هو الجوز والرمان فمثل هذا ليس بمطلب الأنبياء ولا يستدعي أن يتشوَّق النبي للولد ويدعو الله. إنما الرزق هو ذلك العلم والمعرفة التي كان يجدها عندها ويسمعه منها وذلك هو الذي قدَّره وعظَّمه منها ولا يعرف الفضل إلاَّ ذووه.

وقد استمرت سيدتنا مريم عاكفةً على الوجهة إلى ربِّها لا تنقطع فكان لها من هذه الصلة الدائمة بربِّها أن طهرت نفسها طهارة أوصلتها إلى درجة تليق معها بأن يصطفيها ربها على نساء العالمين وبذلك أصبحت أعلى النساء عند الله شأناً وأعظمهن منزلةً.

وقد زاد بها هذا الصفاء النفسي إلى أن بلغت الدرجة التي يتغلَّب بها نور النفس اللطيف على حجاب الجسم الكثيف والتي يستطيع معها الإنسان أن يشهد الملائكة الكرام فيُخاطبهم ويُخاطبونه وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ما نوَّهنا عنه من تلك الطهارة النفسية والإصطفاء كما أشارت إلى ذلك التسامي النفسي الذي أهَّل هذه السيدة الكريمة إلى أن تتلقى خطاب الملائكة الكرام فقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذْ

[1] سورة آل عمران: الآية (٣٣-٣٨).

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصطفَاكِ وطَهَّرَكِ واصطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[1].

وبما أن الركوع في حقيقته هو ذلك الخضوع النفسي لله تعالى، ذلك الخضوع الذي يتمثَّل في نفس المؤمن الذي شاهد كمال ربه وحنانه فقدَّره حقَّ قدره من بعد أن عرف رحمته بخلقه وإحسانه، وعلى هذا فالراكعون هم في الأصل الأنبياء والرسل الكرام ومن شارف منزلتهم من الصدِّيقين ومن تابعهم من المؤمنين. ولذلك أمر الله تعالى هذه الصدِّيقة بأن تَقْنت لربِّها أي تديم وجهتها إليه تعالى وتسجد له وتركع مع الراكعين.

وقد أراد ربك أن يكرمها كما أكرم أمّها بها من قبل فجعلها تعالى أمّاً لرسول من رسله الكرام هو سيدنا عيسى ﷺ ذلك الرسول الذي كان مجيئه إلى الدنيا بآية من الله تعالى وكانت له في طفولته آية وكانت على يديه من بعد آيات بينات أظهرها الله تعالى ليكون منها عبرة لمعتبر فلعل هذه الآيات تستلفت نظر الإنسان الجاحد وتحرّك فكره الخامد فيثوب إلى رشده ويتعرّف بسببها إلى خالقه. ونبدأ الآن بالآية التي كان بها مجيء هذا الرسول الكريم إلى الدنيا وهي آية حمل أمه به من دون أن يتوسَّط في ذلك أب فنقول: قدَّمنا في مطلع حديثنا عن قصة هذا الرسول الكريم أن الله تعالى جعل لهذا النوع الإنساني في المجيء لهذه الدنيا نظاماً وسنة، أمَّا سيدنا عيسى ﷺ فكان مجيئه وولادته مخالفاً لهذا النظام والسنَّة، فما حَمَلَه ﷺ أب إنما جاء المَلَكُ كما ذكرنا حاملاً تلك النفس الكريمة إلى السيدة مريم عليها الصلاة والسلام وكانت إذ ذاك في مكان عبادتها ملتجئة عن أهلها منصرفة في الوجهة إلى ربِّها مقبلة عليه بكلِّيتها فإذا

[1] سورة آل عمران: الآية (٤٢-٤٣).

بها ترى جبريل عليه السلام أمامها وقد أرسله الله تعالى لها فتمثَّل لها على هيئة بشر سوي، قال تعالى مُشيراً إلى قصة الحمل بقوله الكريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ۞ فاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرا سَوِيّاً﴾.

وقد اضطربت سيدتنا مريم وهي في خلوتها من رؤية هذا الشخص أمامها فقالت وقد حسبته رجلاً: ﴿..إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنْكَ﴾ أي: ألتجئ إليه وأحتمي به ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿..إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحمنِ مِنْكَ﴾ أي: إنني التجأت واحتميت بالرحمن منك فمن أنت؟.

والذي نفهمه من مدلول الآية أنه عرَّفها بأنَّه ملك من ملائكة الله فأجابته: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾ أي: وإن كنتَ تقياً ملَكاً ولكنك بشر، فهل يحقُّ لك مخالفة أوامر الله تعالى والدخول على من حرَّم الله عليك الخلوة بها.. وإلاَّ فما مرادك؟.

فأجابها بما ورد في الآية الكريمة ﴿..إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لكِ غلاَماً زَكِياً﴾ أي: إنني مُرسَل من الله تعالى، وأنا لا أشتهي لكوني غير مكلَّف بحمل الأمانة، إني ملَك لأهب لكِ غلاماً طيباً طاهراً عالي الاسم والشأن فعجبت أن يكون لها ولد ولم تتزوج ولم يمسسها بشر، فأجابته: ﴿..أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ۞ قَالَ كَذلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ولِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ أي: واقعاً لا محالة وفيما هي تخاطب الملك الذي كان يحمل نفس سيدنا عيسى ﷺ سرت نفس سيدنا عيسى الطاهرة إليها سريان النور أو كما تسري القوة اللاسلكية محملة على الأثير إلى الهاتف فإذا هو ﷺ محمول في بطنها، قال تعالى مُشيراً إلى ذلك

بقوله الكريم: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ۝ فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: ألجأها ألم الولادة إلى الاستناد والتمسك بجذع النخلة. هنالك قالت وقد اجتمع عليها ألم الولادة وألم نفسي آخر هو أعظم من ذلك الألم الجسمي ناشئ عن خوفها أن يتَّهمها الناس بالزنى وتكثر الأقاويل وهم لا يعلمون من أمر تلك المعجزة التي حملت بها شيئاً وقد يُنْكِرُون عليها كل الإنكار وقد لا يُصدِّقونها إذا أرادت أن تعرِّفهم بحقيقة الأمر وهكذا لاقت غمّاً وحُزناً شديداً، والشريف يَكْبُرُ عليه أن يتَّهمه النَّاس بتهمةٍ باطلة ويتمنَّى أن يموت ولا يتكلَّم عليه أحد بما يلوِّث سمعته وشرفه ولذلك: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنسِيّاً﴾.

وولدت سيدتنا مريم سيدنا عيسى ﷺ وأراد ربك أن يخفِّف عنها ما تجده من غمٍّ وحزن فأنطق مولودها ساعة ولادته بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾. والمراد بكلمة (**سَرِيّاً**) أي: ولداً وجيهاً يسري ذكره وشأنه العالي في الآفاق.

ثم تمَّم هذا المولود قوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾[1]. والمراد بكلمة (**صَوْماً**) أي: انقطاعاً عن الكلام.

وجاءت سيدتنا مريم بمولودها وأتت به قومها تحمله قال تعالى مُشيراً إلى ذلك: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ والمراد بكلمة (**يَا أُخْتَ هَارُونَ**): في التقوى والصلاح.

---

[1] سورة مريم: الآية (١٦-٢٦).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيهِ قَالُوا كَيفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيّاً﴾ وقد تكلَّم سيدنا عيسى ﷺ في المهد وأراد الله تعالى أن يجعل من كلامه آية تبين براءة ذمة أمّه بما قد يتَّهمها به المتهمون من جهة، وتنضم إليها معجزة حمْلها به من دون أب من جهة ثانية، فيؤمنون من وراء ذلك بعظمة الله تعالى كما يعظِّمون هذا المولود ويؤمنون برسالته يوم يبعثه الله رسولاً، وقد أشارت الآيات الكريمة إلى كلام سيدنا عيسى ﷺ في المهد بما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمتُ حَيّاً ۞ وَبَرّاً بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارا شَقِيّاً ۞ والسَّلامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ ويومَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ۞ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقّ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إذا قَضَى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1].

وبعد أن ذكر لنا تعالى قصة حمل سيدتنا مريم بسيدنا عيسى ﷺ وبعد أن بيَّن لنا تعالى معجزة كلامه ﷺ في المهد تلك المعجزة التي تبيِّن براءة السيدة مريم من جهة كما تبيِّن رسالة سيدنا عيسى ﷺ وكونه عبد الله ورسولاً من رسله الكرام ختم لنا تعالى ذلك بقوله الكريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقّ الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وتفيد كلمة (**سُبْحَانَهُ**) الواردة في هذه الآية معنى أنه تعالى منزَّه عن أن يكون له ولد لأن المولود من خصائصه أن يحمل صفة أبيه ويشابهه فالله تعالى مُنَزَّه عن أن يشابهه أحد في ذاته أو في أي اسم من أسمائه.

---

[1] سورة مريم: الآية (٣٠-٣٦).

وبشيءٍ من التفصيل نقول: إنَّ الله تعالى أزلي قديم أي أول بلا بداية لا أول لوجوده فمهما قلت أول فهو أول وأول وليس له أول، أما سيدنا عيسى بن مريم فله أول وأوله زمن ظهوره لعالم الوجود وهو بهذا كغيره من المخلوقات التي لها بداية ونهاية والبداية والحدوث صفة تلازم المخلوقات وتتنافى مع الألوهية.

والله تعالى صمد في ذاته وفي كل اسم من أسمائه، والصمد هو الذي يُمِدُّ ولا يستمد ولا يحتاج إلى غيره. فالله تعالى مثلاً صمدٌ في حياته بمعنى أنه لا يستمد الحياة من غيره ولا تتوقَّف حياته على أحد أو على شيء من الأشياء، بل هو تعالى الحي منبع الحياة ومصدر الحياة ومنه تعالى وحده تُسْتَمدُ حياة كل مخلوق من المخلوقات. أمَّا سيدنا عيسى فهو كغيره من المخلوقات في هذه الناحية فحياته ﷺ مستمدة من الله تعالى فإذا انقطع إمداد الله تعالى بالحياة عن سيدنا عيسى مات في الحال.

ثم إنَّ الإلَه إنَّما يكون قائماً بذاته بمعنى أنه لا يحتاج في بقاء وجوده إلى عامل من العوامل أو شيء من الأشياء.

أمَّا سيدنا عيسى ﷺ فهو خاضع للقوانين الكونية التي أبدعها الله تعالى للأحياء فهو محتاج إلى الطعام والشراب والنور والهواء وبقاء حياته متوقف على كثير من العوامل شأنه في ذلك كشأن غيره من المخلوقات. ثمَّ إن الولد يتخذ ليكون عوناً لأبيه ومساعداً له والله تعالى غني عن أن يساعده مخلوق من مخلوقاته، وإذا كان المخلوق إنَّما يستمد كل شيء من الله تعالى، فكيف يصح أن يستعين خالق قوي بمخلوق ضعيف لاحول ولا قوة له.

والإلّه إلى جانب كل ما ذكرناه إنَّما يكون مُحيطاً بسائر الموجودات فهو أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء. أمَّا سيدنا عيسى ﷺ فإنما كان محمولاً على سطح الأرض مُحاطاً بالهواء والفضاء والسموات وذلك كلَّه ممَّا يتنافى مع صفات الألوهية وقد أشارت الآيات الكريمة مبيِّنة فساد ادِّعاء من نسب الألوهية إلى هذا الرسول الكريم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إسْرَائيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۞ لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قَالُوا إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ إلَهٌ وَاحِدٌ وإنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى اللهِ وَيَسْتَغْفِرونَهُ وَاللهُ غَفورٌ رَحِيمٌ ۞ مَا المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ ۞ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[1] .

وهكذا فتوقف الحياة على الطعام والشراب ينافي الألوهية ويثبت الاحتياج، والإلّه كما رأينا صمد لا تتوقف حياته على شيء ولا يحتاج لشيء من الأشياء وهو غني عن كل شيء.

وقد أرسل الله تعالى سيدنا عيسى ﷺ لبني إسرائيل وكان الناس في عصره على جانب عظيم من المهارة والمعرفة بالطب فأيَّده الله تعالى بآيات بينات تتناسب مع عصره ويعجز النَّاس مهما برعوا في الطب والمداواة أن يأتوا بمثلها إظهاراً لرسالته فلعل النَّاس يستعظمون رسولهم ويتبعونه فترافق نفوسهم تلك النفس الزكية الطاهرة وتعرج

---

[1] سورة المائدة: الآية (٧٢-٧٦).

بمعيَّتها إلى خالقها فتشهد الكمال الإلٰهي وتشهد بذلك النور الإلٰهي الحقائق فترى الخير من الشر والحق من الباطل وهنالك تعرض عن الدنيا وسفاسفها وتقبل على الله تعالى فتعمل للآخرة وتسعى لها.

وممَّا أيَّد الله تعالى به هذا الرسول الكريم أنه كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله وأنه كان يُحي الموتى بإذن الله وقد أشار تعالى إلى ما أظهره على يد هذا الرسول من المعجزات: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَّبِّكُم أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوراةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخرِجُ المَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحرٌ مُبِينٌ﴾[2].

وهكذا فمهما تقدَّم الطب فالأطباء جميعاً في كل زمان ومكان عاجزون عن إحياء الميت وردِّ روحه إليه، وأيَّد الله تعالى رسوله بهذه المعجزة البيِّنة غير أنَّ الإنسان مهما رأى من آيات ومهما ظهر له من معجزات لا يغني ذلك شيئاً إن هو لم يفكر في آيات هذا الكون ويتعرَّف منها إلى خالقه، وما دام هذا الإنسان كافراً أي لا تقدير

[1] سورة آل عمران: الآية (٤٩).

[2] سورة المائدة: الآية (١١٠).

لديه ولا تعظيم لآيات الله فلا يمكن أن يرجع عن ضلاله ولا أن يُعظِّم ما يراه من المعجزات التي يُظهرها الله على يد رسله.

فهذا السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله وينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ويُبرئ الأكمه والأبرص ويُخرج الموتى بإذن الله ومع ذلك كله تجد الذين كفروا، أي الذين لم يقدِّروا آيات الله ولم يعبؤوا بها يتَّهمونه بالسحر كما اتَّهموا غيره من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين. فيقولون إنْ هذا إلاَّ سحر مبين وقد سمعوا كلام سيدنا عيسى ﷺ في المهد ثم قالوا إلى جانب ذلك على مريم بهتاناً عظيماً.

ثمَّ إنَّك إلى جانب هؤلاء الكافرين المعرضين تجد آخرين ما آمنوا بالله حق الايمان وما تعرَّفوا إلى خالقهم عن طريق النظر والاستدلال، بل قلَّدوا آباءهم تقليداً أعمى فهؤلاء لـمَّا رأوا على يد سيدنا عيسى ﷺ ما رأوه من معجزات غلوا في دينهم وكفروا أيضاً بالله فقال فريق منهم إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال فريق المسيح ابن الله وقال آخرون إن الله ثالث ثلاثة فزعموا أنَّ سيدنا عيسى وأمه إلهين من دون الله كما مرَّ بنا في آيات مضت وقد ندَّد تعالى بكذبهم وكفرهم فذكر لنا موقف سيدنا عيسى ﷺ يوم القيامة بين يديه وأشار إلى كذب هؤلاء فيما قالوه عن لسان رسوله الكريم فقال تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُم إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ

اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُم وكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمتُ فِيهم فَلَمَّا تَوفَّيتني كُنتَ أَنتَ الرَّقيبَ عَليهِم وَأَنتَ عَلى كُلِّ شيءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

وقد عارضت بنوا إسرائيل سيدنا عيسى ﷺ معارضة شديدة كما عارضوا من قبل من جاءهم من الرسل الكرام لأنهم فتنوا بالدنيا وشهواتها بسبب إعراضهم عن ربهم فما كان يروق لهم أن يأتيهم رسول بما لا تهوى أنفسهم. قال تعالى مُشيراً إلى موقفهم هذا تجاه رسله: ﴿. .أَفَكلما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتم فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[2].

وكاد بنوا إسرائيل لسيدنا عيسى كيداً شديداً قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿فلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَن أَنصَاري إلى اللهِ قَالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَا آمَنَّا بِما أَنْزَلتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدينَ﴾.

وقد حمل الكفر أولئك المعارضين الذين كفروا بربِّهم على تدبير المؤامرات لقتل رسوله ﷺ كما هي عادتهم، قال تعالى مُشيراً إل ذلك بقوله الكريم: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خيرُ المَاكِرينَ﴾[3].

وقد ضاق صدر سيدنا عيسى ﷺ بهؤلاء الكفرة وهكذا المؤمن كالمرآة الصافية تنعكس في نفسه أحوال المعرضين عن الله فيضيق بهم صدراً ويلقى من جرَّاء اجتماعه بهم غمّاً شديداً ولذلك وعد الله رسوله ﷺ بأن يُطهِّره من الذين كفروا وبشَّره بذلك

---

[1] سورة المائدة: الآية (١١٦-١١٧).

[2] سورة البقرة: الآية (٨٧).

[3] سورة آل عمران: الآية (٥٢-٥٤).

فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذينَ اتَّبَعُوكَ فَوقَ الذينَ كَفَرُوا إلى يَومِ القِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُم فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

وقد بدأت الآية الكريمة بكلمة ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، وليس المراد من التوفي الموت لأن التوفي يقع في حال النوم أيضاً قال تعالى: ﴿وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُمْ بِالليلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فيهِ لِيُقضَى أَجَلٌ مُسَمّىً..﴾[2].

والتوفي لغةً: هو أَخْذك الشيء واستيفاؤك إيَّاه بعد أن تكون قد منحت فيه حق التصرُّف لغيرك حيناً. تقول: توفيت دَيْني من فلان، أي: أخذته واستعدته منه، وتقول: توفَّى فلان حقَّه من غريمه. وبناءً على ما قدَّمناه ولبيان المراد من توفي النفس نقول: إن الله تعالى منح النفس في هذه الحياة الدنيا الاختيار وبناء على اختيارك ينفذ الله تعالى لك مرادك ومطلوبك وتوفي النفس إنما يكون بقبض الاختيار.

وكما يقع التوفِّي في حال الموت يقع في حالة النوم.

ففي حال النوم يكون توفي النفس بأن يقبض الله تعالى الاختيار من النفس مدة وجيزة وهنالك يستسلم الإنسان لنومٍ لا يستيقظ منه إلاَّ إذا أعاد الله تعالى للنفس اختيارها وعاد عليها بسابق فضله.

أمَّا في حال الموت فيكون توفي النفس بأن يقبض الله تعالى من النفس اختيارها قبضاً نهائياً، قال تعالى مُشيراً إلى وفاة النفس في حال الموت ووفاتها في حال النوم

---

[1] سورة آل عمران: الآية (٥٥).

[2] سورة الأنعام: الآية (٦٠).

ومبيِّناً لنا الفرق بين الوفاتين بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى..﴾[1].

ويختلف توفي النفس في حال الموت عن توفي النفس في حال النوم أيضاً بأنَّ توفي النفس في حال الموت يرافقه توفي الروح وقبضها من الجسد.

فالروح: وهي ذلك النور الإلّهي والذي تكون به حياة الجسد وانتظام سير أجهزته إذا هي قُبضت من الجسد فعندئذٍ يتوقف عن الحركة وتنقطع أجهزته عن القيام بوظائفها وتنعدم منه الحياة فتمتد إليه يد البلى والفناء. ثم إنَّ توفِّي الروح إنما يكون بواسطة الملك، فالمِلك الموكَّل بنفخ الروح في الإنسان عندما يكون جنيناً في بطن أمه هو الموكَّل أيضاً بقبض الروح من الجسد حين الموت قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ..﴾[2].

قال تعالى: ﴿..حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3].

وبناءً على ما قدَّمناه إذا قرنت كلمة (**التوفي**) بكلمة (**المَلَكْ**) فهي إنما تعني توفِّي الروح وأعني بذلك الموت وانقطاع الحياة.

والآن وبعد أن بيَّنا معنى التوفِّي والفرق بين وفاة الموت ووفاة النوم نقول: بما أن كلمة ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ التي خاطب الله تعالى بها سيدنا عيسى ﷺ لم تقترن بذكر الملك فهي إذاً لا تعني قبض الروح المعبَّر عنه بالموت وإنَّما تُشير إلى توفي النفس وأعني به قبض الاختيار الذي يقع في حال النوم وهكذا فقد توفّى الله تعالى سيدنا عيسى توفّياً

[1] سورة الزمر: الآية (٤٢).
[2] سورة السجدة: الآية (١١).
[3] سورة الأنعام: الآية (٦١).

أخفى به جسمه عن الأنظار وجعله في حال كحال النائم ويشبه ذلك ما وقع لأصحاب الكهف الذين توفَّاهم الله تعالى مئات السنين دون أن يتطرق البلى إلى أجسامهم ثم بعثهم ليكونوا عبرة للّذينَ كانوا في ذلك العصر الذي بعثهم الله فيه قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[1].

وبما أن سيدنا عيسى ﷺ يعلم أنه لا يُقَرِّب العبد من خالقه زلفى سوى عمله العالي وليس يرفعه إلى ذلك الجناب الإلَهي الكريم غير فعله المعروف ودعوته الناس إلى طريق الحق والايمان، وبما أنَّ سيدنا عيسى ﷺ لقي من قومه ما لقي من الكفر والمعارضة ولم يذعن لدلالته إلاَّ نفر قليل أو ضئيل من الناس لذلك لـمَّا أخبره الله تعالى بأنه متوفِّيه حزن أسفاً على أنه لم تحقَّق له نيته العالية ولم يتم له مطلبه في هذه الحياة.

وقد أراد الله تعالى أن يُسلِّيه عن ذلك ويُبشِّره بما سيجعله من الخير على يديه فقال تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: أي لا تحزن فلا بد من أن أُعيدك للناس ثانية وستدعوهم إلى الإيمان فيؤمنون، وإني رافعك إليّ بصدقك ونيتك العالية، وبما ستقوم به حينئذٍ من دلالتك لخلقي عليّ وجهادك في سبيل الأخذ بأيديهم إلى سبيل الإيمان.

وإذاً فليس المراد من كلمة ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ما يتبادر إلى الأذهان، أذهان بعض الناس من أنه رُفِعَ إلى السماء. فإن الآية جاءت صريحة بقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ولم تقل ورافعك إلى السماء والله تعالى هذا الخالق العظيم الذي لا نهاية له مُنزَّهٌ عن أن يُحيط به زمان ومكان فهو خالق الزمان والمكان.

---

[1] سورة الكهف: الآية (١١-١٢).

ثم إنَّ السماء والأرض عند الله تعالى سيَّان في المنزلة والشأن وكلاهما مخلوق وليس يرفع من شأن الإنسان رفعهُ إلى السماء، إنَّما الذي يرفع الإنسان إلى خالقه ويدنيه من جنابه الكريم عمله العالي وجهاده في سبيل الله ودعوته الناس إلى طريق الحق وهدايتهم إلى الصراط المستقيم. وإذاً فالذي جاءت به الآية الكريمة ليس رفعاً جسمياً إنَّما هو رفع المنزلة والشأن نقول: رفع الأمير فلاناً إليه أي أدناه منه منزلة ومكانة لا جسمياً ومكاناً.

أقول: والذي ينفي أيضاً رفع سيدنا عيسى ﷺ إلى السماء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[1].

والربوة: هي المكان المرتفع من الأرض. والقرار: هو الجبل الراسخ المستقر. والمعين: الماء الجاري الذي لا ينقطع، وقد جاء في بعض الأقوال وهو ما رواه البيضاوي في تفسيره والمؤرخ ابن جبير في كتابه "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" أنَّ هذا الإيواء إنَّما كان إلى ربوة دمشق، وجاء في بعض الآثار أن ظهور سيدنا عيسى ﷺ في آخر الزمان سيكون في دمشق.

والآن وبعد أن بيَّنا ما تُشير إليه الآية الكريمة من التوفي والرفع نقول:

بعد أن بشَّر الله تعالى سيدنا عيسى ﷺ بالعودة والقيام بالدعوة إلى الحقِّ أراد تعالى أن يطمئن قلب رسوله بأن النَّاس في زمنه سيهتدون به وسينقلب العالم بأسره إلى عالم مؤمن بالله وستُمحى دولة الكفر من الوجود وتحلُّ محلها دولة التوحيد والإيمان وهنالك ينطوي النَّاس تحت لواء الحق جميعاً فلا يعود يضيق صدرك من أحد ولا تعود تشعر

---

[1] سورة المؤمنون: الآية (٥٠).

بهذا الضيق الذي تلقاه اليوم من اجتماعك بأهل الكفر والضلال إنَّك ستجد صفاءً وسروراً وستشعر بهذه الطهارة من هؤلاء الكفار طهارة دائمية وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذينَ كَفَرُوا﴾، ثم بيَّن تعالى أنَّ هذه الدولة دولة الإيمان ستبقى إلى يوم القيامة وسيبقى للمؤمنين الشأن والسيطرة يهتدي العالم بهدْيهم قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الذينَ اتَّبَعُوكَ فَوقَ الذينَ كَفَرُوا إلَى يَومِ القِيَامَةِ ثُمَّ إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

والآن وبعد أن بيَّنا المُراد من التوفِّي والرفع والتطهير الواردة في الآية الكريمة السابقة لا بدَّ لنا من ذكر موجز القصة التي كانت سبباً في توفي سيدنا عيسى ﷺ وحجبه عن الأنظار فنقول: لما تآمر اليهود على قتل سيدنا عيسى ﷺ شاركهم في ذلك رجل منافق منهم كان قد تظاهر بالإيمان وأنه من أتباع سيدنا عيسى ﷺ، وفي اليوم الذي أرادوا فيه تنفيذ المؤامرة، تقدَّمهم ذلك الرجل إلى المكان الذي كان فيه سيدنا عيسى ﷺ ليدلَّهم عليه وهنالك حجب الله تعالى رسوله وأخفاه عن الأنظار وألقى الشبه على ذلك الخائن فأخذوه يريدون أن يقتلوه ويصلبوه فتمنَّع تمنُّعاً شديداً وبيَّن لهم أنه ليس بعيسى ونفى ذلك نفياً قوياً فما سمعوا له قولاً بل قتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى ﷺ وهكذا فقد لقي ذلك الخائن مصرعه ونال جزاءه قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيرُ المَاكِرِينَ﴾[2].

ثم إن هؤلاء المتآمرون بعد أن فعلوا ما فعلوا خامرهم الشك فقالوا وهم يتساءلون فيما بينهم إن كنَّا قد قتلنا عيسى فأين صاحبنا وإن كنا قد قتلنا صاحبنا فأين عيسى

---

[1] سورة آل عمران: الآية (٥٥).

[2] سورة آل عمران: الآية (٥٤).

وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۝ بَل رَفَعَهُ اللهُ إِلَيهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

ثم أشار تعالى إلى عودة سيدنا عيسى ﷺ في آخر الزمان وإيمان فريق من أهل الكتاب به قبل موته فقال تعالى: ﴿وَإِن مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَومَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[1].

وأشار تعالى إلى خروج سيدنا عيسى ﷺ وعودته في آخر الزمان في مواضع ثانية من القرآن الكريم فقال تعالى في سورة البيِّنة مخاطباً سيدنا محمَّداً ﷺ بقوله الكريم: ﴿لَمْ يَكُنِ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ﴾ أي: إنَّك لتطمع في إيمان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين وهؤلاء لا ينفكُّون عن كفرهم وعنادهم حتى تأتيهم البيِّنة.

ثمَّ بيَّن تعالى هذه البيّنة أنَّها رسولٌ من الله فقال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ والصحف المطهرة ما أرسله الله تعالى من الأوامر الإلَهية والتشريع الحكيم الدال على طريق السعادة والخير وهي بحسب الآية التالية الموضحة لها إنما تعني القرآن الكريم، الذي حوى كافة الكتب السماوية والصحف المقدّسة.

قال تعالى: ﴿فِيْهَا كُتُبٌ قَيِّمةٌ﴾، أي أن هذه الصحف المطهرة التي يتلوها رسول من الله إنَّما تضمنت بين طياتها كُتباً ذات قيمة عالية. وما هذه الكتب القيِّمة إلاَّ الكتب الإلَهية التي أنزلها الله تعالى على من سبق سيدنا محمداً ﷺ من المرسلين، وما

[1] سورة النساء: الآية (١٥٧-١٥٩).

هذه الصحف المطهرة إلاَّ صحف القرآن الكريم الذي حوى الكتب الإلٰهية السابقة. ولذلك فالقرآن الكريم بحسب ما ورد في هذه الآيات هو الكتاب الذي سيتلوه سيدنا عيسى بن مريم ﷺ يوم عودته على الخلق كافة.

ثم إنَّ الله تعالى أراد أن يوضِّح لنا توضيحاً لا يتطرَّق إليه الشك أن هذه البيِّنة إنما هي سيدنا عيسى ﷺ فقال تعالى في سورة البينة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَة﴾ أي: أنَّ الذين أوتوا الكتاب وهم بنوا إسرائيل لم يتفرقوا إلى يهود ونصارى إلاَّ من بعد ما جاءهم سيدنا عيسى ﷺ وعلى هذا أصبحت كلمة (البيِّنة) تعني بلا شك سيدنا عيسى ﷺ.

وقد بيَّن لنا تعالى في القرآن الكريم أنَّ ظهور سيدنا عيسى ﷺ في آخر الزمان سيكون عِلْماً أي: بياناً للساعة فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون، وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمونَ ۞ إنْ هُوَ إلاَّ عَبْدٌ أَنْعمنا عَليهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَني إسْرائيل ۞ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكم مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۞ وَإنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُون هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ۞ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيطانُ إنَّه لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1] .

ولعلك تقول: لِمَ توفى الله سيدنا عيسى عليه السلام ذلك التوفي الذي بيَّناه ووعده بأن يعيده في آخر الزمان وما وقع هذا لأحد من المرسلين؟.

فأقول: إذا آمن الإنسان بخالقه حقَّ الإيمان وأقبل على الله تعالى حقَّ الإقبال امتلأت نفسه بالكمال وأصبحت تهوى فعل الخير والإحسان. وبما أنَّ الله تعالى لا

---

[1] سورة الزخرف: الآية (٥٧-٦٢).

يعطي امرءاً يوم القيامة منزلة من المنازل إلاَّ بناءً على ما قدَّم من أعمال طيبة وحيث أنَّ سيدنا عيسى ﷺ لما جاء بالبينات عارضته بنوا إسرائيل كما رأينا من قبل تلك المعارضة الشديدة وما استطاع أن يحقِّق رغائبه ونيَّته العالية في تعريف الناس بخالقهم ودلالتهم عليه تعالى ولذلك وعده الله عزَّ وجل أن يُعيده في آخر الزمان وأن يرفعه بعمله العالي وأن يجعل المؤمنين الذين سيتَّبعونه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، تطييباً لنفسه وإظهاراً لعمله ولما خفي من عالي نيَّته وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة التي قدَّمناها من قبل في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُوا وَجَاعِلُ الذين اتَّبَعُوكَ فَوقَ الذينَ كَفَرُوا إِلى يَومِ القِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١].

والحمد لله رب العالمين.

[١] سورة آل عمران: الآية (٥٥).

إنَّ الطامَّة الكبرى والبليَّة العظمى في أمة نظرت في كتاب ربِّها وتلته ولم تره ولم تشهده ... ونظرت في كتب الدسوس فأخذت بها وصدَّقتها ورأتها مع مخالفتها الصريحة لكتاب الله عزَّ و جل .

إذن إن أمة هجرت كتاب الله العظيم ليست أمة معصومة أبداً وقطعاً و كيف تكون معصومة و ألصقت بالرسل الكرام أعمالاً يترفع عنها أدنى الناس وهم يريدون من وراء ذلك كله أن يبرهنوا على أن الإنسان مجبول على الخطأ، وليبرروا ما يقعون به من أعمال منحطة لايرضى بها الله، ويصدُّوا الناس عن الصلاة عليهم وتحويلهم عن محبتهم وتقديرهم وعدم الاستشفاع بهم .

والله تعالى يقول: (نحن نقص عليك أحسن القصص) وليس أسوأ القصص كما أوردوا في كتبهم وتفاسيرهم التي تتنافى وكمال الرسل الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام ، فهم صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده اجتباهم هداة مهديين .

ولذلك و إظهاراً لوجه الحقيقة والحق والدين وتعريفاً بكمال رسل الله الكرام أقدمنا على نشر كتاب عصمة الأنبياء أخذاً عن أستاذنا العلامة الكبير محمد أمين شيخو قدس الله سره أثناء إلقائه الدروس من فمه الشريف الذي شرح فيه كمال أولئك الرجال العظام مستنداً إلى الآيات القرآنية ذاتها ، متوافقاً مع المراد الإلهي منها الذين جعل الله في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، وضرب في طهارتهم وشرف نفوسهم مثلاً للعالمين .

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)

الناشر